

الفصل الأول عبقرية الحب

ما هو الحب ؟ سؤال غريب حقاً، فلماذا نسأل!! وكلنا يجب دون أن يسأل!! وكلنا يمارس الحياة دون أن يعرف سر الحياة، ودون أن يقف على حقيقتها، والذي يسأل عن معنى الحب مثل من يسأل عن معنى النور، ومعنى الهواء والماء ؟ وهى أسئلة فى غاية السهولة والصعوبة معا، ولماذا نسأل عن معنى الحب؟ طالما نحن نحب دون حاجة للسؤال أصلاً؟!، وهل فرغت الحياة لحظة من معنى الحب حتى نسأل عنه!! نحن نمارس الحب مثلما نمارس الحياة بصورة عفوية، دون أدنى محاولة منا على أن نقف على حقيقة ما حدث؟ وربما نكون لا نحتاج أصلاً إلى معرفة ذلك كيفينا أننا نحب فقط أو نحيا فقط!! ويكفى السرور أن يحس بالفرح دون أن يعرف حقيقة الفرح!! ويكفيك أن تعيش فى نعيم النشوة، فهذا خير ألف مرة من سؤالك عن معناها، بل من الخير والخلق معا أن نعيش أكثر مما نسأل: كيف نعيش؟، فالحب نعيشه وتنفسه قبل أن نحله، ونمارسه قبل أن نتقله، وربما نغار فيه بصورة شعورية ولا شعورية، فنحياه ونستغرق فى أطرافه الخملية الشفيفة دون أن نضيع وقتاً فنلتفت إلى معناه، وربما نستغرب أننا نتكلم عنه، وربما نقول لأنفسنا فى صمت كيفينا أننا نحب فقط.

الحب مثل النور، كل منا يراه وحسه ويبتهج به، لكننا فى النهاية لا نستطيع أن نصفه أو نقع على جوهرة، أو نمسك بتلابيب كهنه، أو نتعرف مسارات اتجاهاته أو منابع تدفقه، أو تنبؤات مجهولاته، فالحب حقيقة طليقة خالدة من حقائق حياة الكلية المتناهية، ألا تظهرنا خبرتنا الشخصية على أن الحياة لا تبدو جميلة يقينة ساحرة إلا من خلال عيون الحب ؛ ألسنا نحس حين يرتفع عنا سحر الحب بأن أحلامنا وأفكارنا وآمالنا ومقاصدنا وغاياتنا قد أصبحت جميعاً خلوا من

المعنى، صفراً من كل قيمة؛ وعندما يزونا الحب فتليء بالحياة والنشاط والرضا والفرح والأفكار والأحلام والغايات والقيمة. وإن أفلأ يحق لنا أن نقول إن الحب هو مركز الحياة وسر معناها، ومنبع السعادة، وسحر القيمة " (ر) وإذا كان الفلاسفة التقليديون القدماء قد درجوا - تحت تأثير الديانات القديمة - على اعتبار القيم ثلاثاً ألا وهي: الحق والخير والجمال، فإن الفلاسفة المعاصرين لم يجدوا حرجاً في أن يضيفوا إلى هذه الثلاث قيمة رابعة، ألا وهي الحب، بل الحب هو الذي يخلع على تلك القيم الثلاث كل ما لها من قيمة، لأنه ماذا عسى أن يكون الحق دون الحب الحق، وماذا عسى أن يكون الخير دون حب الخير، وماذا عسى أن يكون الجمال دون حب الجمال ... أحل إر الحب قيمة القيم، فإن القيم الأخرى لا تقوم بداتها))^(١)، فقيمة الحب تقوم بذاتها دون احتياج للقيم الأخرى. بل هي التي تدير قيام القيم الأخرى. والحب كما يقول مصطفى صادق الرافعي هو ((الجمال الأزلي يستعلن لكل إنسان بالوسيلة التي توافق مزاجه وتلائم تركيب نفسه على قدر ما يلائمه وعلى أحسن ما يلائمه))^(٢).

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعاندها فالجمال الأزلي ينبع رباني فياض يتجلى لكل المخلوقات والموجودات الحية وغير الحية فيبعث فيها حياة الحب، وشوق التلاقي، ولهفة الوصال، وسحر الامتزاج والدخول في رحاب قوة مجال مغناطيسية الحب، فالحب قوة ربعية كونية نسرى فى نسيج جميع الكائنات والموجودات والأشكال. فتتحرك الأشياء متجاذبة بعضها صوب بعض، ويتسرب حنان خصيب من حسد بعضها إلى جسد بعض بفعل قوة الحب الغلابة فالله محبة، وحركة الأجرام والمجرات والكواكب محبة وانبثاق روح الشجر صوب السماء شوقاً للتعالي. وانسكاب زرقة النجوم فى القبة

الزرقاء اللامتناهية محبة لسخاء الكون الواسع، والتجاذب والتنادى بين الكائنات محبة، وكل وعي صادق، أو فهم أصيل هو نوع من المحبة العميقة، والاستبصار الروحي الرهيف بسر العلاقات المرئية واللامرئية بين الشيء والشيء، والموجود والوجود، من خلال التعاطف الخيالي القائم على المحبة والود والتمدد والاحتواء والثراء والانطلاق، فنحن لانستطيع الفهم الواعي البصير لأنفسنا وأنفس الآخرين من حولنا، وطبيعة الكائنات والموجودات، إلا في ظلل من التعاطف والود والتقدير الحى المخلص، بين ذواتنا وذوات الآخرين، وذوات الكائنات والموجودات والتقمص الوجدانى البصير لحالهم ووجودهم، بل لانستطيع فهم العلاقة الجدلية المعقدة بين النظريات العلمية والواقع إلا في ضوء من الفهم البصير الودود لكليهما معا، وكل القيم تقوم بغيرها إلا الحب فهو القيمة الوحيدة التي تقوم بذاتها، أو هو القيمة التي تقوم بها كل القيم، أو هو الشيء الوحيد الذي لا يترك لمن يملكه (كما يقول وليام هارزيت) شيئا آخر يرغب فيه ، فطوبى إذن لمن أحب ، ثم طوبى لمن عرف إذا أحب كيف يولد لدى غيره الحب، وكيف يستشرف فيمن حوله بذور الطيبة والخير والوصال، إن الإنسان لهو في حاجة دائما إلى أن يصدق وحب حتى يظهر ويتجلى، والحب هو الذي يكشف بذور الخير والجمال في كل مخلوق حتى في أشد الوجوه صلابة، وأكثر النفوس تفاهة، فيجعل منها بذلك مخلوقات جديدة بالحب))^(٣) يقول الشاعر الروسي (أوسترو فسكي): (قالت قطعة الجليد وقد مسها أول شعاع من أشعة الشمس في مستهل الربيع : أنا أحب ، وأنا أنوب ، وليس في الإمكان أن أحب وأوجد معا : فإنه لا بد من الاختيار بين أمرين : وجود بدون حب وهذا هو الشتاء القارس الفظيع ، أو حب بدون وجود ، وذلك هو الموت في مطلع

الربيع)^(٤). وارتفع جلال الدين الرومي بمشاعر عاطفة الحب إلى قمة روحية كونية سامية حتى ليرى عاطفة الحب نورًا مشعًا في جميع نسيج الوجود من أقصاه إلى أقصاه: يقول الرومي:

سوف أخبرك كيف خلق الله الإنسان من طين ذلك أنه جل جلاله نفخ في الطين أنفاس الحب!

سأقول لك: لماذا تمضى الأفلاك في مداراتها
ذلك أن عرش الله سبحانه وتعالى يغمرها بانعكاسات الحب
سأقول لك: لماذا تهب رياح الصباح؟
ذلك لأنها تريد أن توقظ بغزارة أزهار الحب!
سأقول لك: لماذا يتشع الليل بغلائله؟
ذلك انه يدعو الناس إلى الصلاة في مخدع الحب!!
إننى أستطيع أن أفسر لك جميع ألغاز الكون
وما الحل الوحيد لكل لغز سوى الحب!!

فالحب يصعد من القلوب والعقول والأرواح والكائنات والأشياء والجمادات صوب نور السماء فينساح في الكون الكبير، ويتماوج مع أسرار الأثير، ولعل تصور الرومي يذكرنا بتصور ابن الفارض في الحب إذ قال مخاطبًا هذه الروح الكونية المحبة المبتوثة في الوجود كله:

إذا وقفت أصلي يسا قبلي في صلاتي
إليه وجهت كلي جمالكم نصب عيني

عاطفة الحب فى القلوب، غير أن كثيرين آخرين عبدوا الصفات الروحية والملامح النفسية والجسدية التى ساعدت على اشتعال شرارة الحب فى الصدور من أول نظرة، فنجد حوارات طويلة بين العقل والقلب والعين بشأن سبب وأصل الحب وأبهم كان السبب فى الحب!! الكننا فى كل الأحوال لا نعرف بالضبط لماذا نحب؟؟ ولا نعرف بالضبط: هل نحب مختارن أم مجبرين؟، ولماذا نحب هنا الحبيب دون سواه مع وعينا الكامل بأنه ليس أفضل الناس فى كل شىء، يقول المتنى:

وأسمع من ألفاظه اللغمة التى يلذ بها سمعي ولو ضمننت شتمي
فقد اختلف العلماء والمفكرين والفلاسفة والشعراء فى تفسير سر الحب : هل أمر
الحب اختيار أم أمره إجبار ؟ أم هو اختيار إجبار ؟! أم اختيار وإجبار فى وقت
واحد!! ومانسة الاختيار فيه إلى نسبة الإجبار، يقول ابن حزم ((فأما استحسان
الحسن وتمكن الحب ، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقلبيها، وإضا
يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة ، وأما المحبة مختلفة ... وإني إنما أحبته
لنفسى ، ولالتذاذها بصورته ، فأنا أتبع قياسى ، وأقود أصلي ، وأقفو طريقي
فى الرغبة فى سرورها ، (وأنت) إن بذلت نفسك لم يكن اختيارا ، بل كان
اضطراباً ولو أمكنك ألا تبدليها لما بذلتها^(٥) وهذا يعنى أن الحب معاناة روحية
لطيفة غامضة تقع خارج قدرة العقل على التفسير والبرهان والتبرير . فكل منا مجبر
مختاراً وبصورة عفوية على اختيار ما يلائم طبعه ومزاجه وهواه ولهفات
فؤاده، ومرامى روحه، ولعل كل شبيهه منجذب إلى شبيهه، فشبه الشىء منجذب
إليه، وربما يشير هذا التصور إلى فلسفة التلاقى الروحى القديم بين الأرواح فى العالم

العلوي قبل أن تحل في الأجساد على الأرض، وتقع في تناقضات الأرض، وسدود العالم الدنيوي، فالحب يستطيع أن يفسر العقد القديم الأصيل بين الأرواح في العالم العلوي قبل فراق الأرواح لهذا العالم الذي كان يمثل بهجة خالصة، وفرحا محضا لا يشوبه شيء من قلق أو وجع أو مادة أو اضطراب وتناقض، ثم نزلت الأرواح إلي قفص التراب الأرضي تشقى وتتوجع وتتأوه، تتنازعها الأشواق، وتتجاذبها القلائل حائرة بين طمحات الروح، وأشواق المثال، وضرورات الأرض وسدود التراب وجموح الروح، وطلاقة الوجدان!!، ولقد صور ذلك ابن سينا في عينه المشهورة :
مجسدا حيرة الروح بين أشواق الروح، وضرورات التراب .

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
ولا تزال الأسئلة الجوهرية المصيرية في الحب قائمة من وراء الدهور والعلوم
والفنون حول طبيعة الحب . ما هو الحب؟ وما سبب وقوعه؟ وكيف يقع؟ ولماذا
يقع؟ وهل هو قضاء وقدر وإجبار أم إرادة وعقل واختيار؟! وهل إنا أحب أحد
أحدا كان على الطرف الآخر أن يباده الحب بالضرورة؟ أم هناك حب من طرف
واحد نعجز عن تفسيره، بل هناك من أحب في الحلم وتأم وتلذذ أيضا في الحلم
إن هناك أسئلة وجودية وثقافية وفقهية كبيرة بخصوص حقيقة الحب؟
وأسراره!! فهل نحن نحب ما كان مقدرنا لنا سلفا في عالم الأرواح والذر قبل أن نخلق
في عالم الأرض؟ أم نحن نحب ما يوافق هوانا هواه، وتتحد رؤانا مع رؤاه
في الدنيا؟ فهل هناك ائتلاف في عالم الأرواح قبل الخلق في عالم الذر حيث (الأرواح
جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف؟! " فنحن نتعارف
على أحبابنا قبل حدوث الخلق هناك في عالم البهجة الصافي، ثم نأتي إلى الدنيا

فيحن كل شبيه إلى شبيهه ، ويتوق كل نصف إلى نصفه الآخر حتى يكتمل الناقص
فيما وفيه وتكمل بة في مسارها الحي الرائع ، ولقد تبين قديما لدى أفلاطون أن
للحب اتجاهين مختلفين : اتجاهاً زمنياً أفقياً تعبر عنه الرغبة في توليد الأجسام لخدمة
المجتمع ، واتجاهاً أبدياً رأسياً تعبر عنه الرغبة في توليد الأرواح من أجل التسامي
بها نحو الله ، وإذا كانت : ((أفروديت " الأرضية " الشعبية ")) ، هي التي تهتم
بالتناسل أو تخليد النسل، فإن (أفروديت) السماوية (أو الإلهية) هي التي تأخذ
بأيدنا من أجل مساعدتنا على التفلسف والمعرفة، وليست الصلة معدومة تماماً بين
هذين الاتجاهين المختلفين للحب ، فإن الإيروس شديد الانفعال كما رأينا ينزع نحو
الخلود في كلتا الحالتين ، سواء كان غرضه التناسل أم التصاعد ... وحينما يغلطن
السالك في طرق الحب إلى أن ما يخلع على الأشكال الجميلة حسنها إنما هو كونها
تعبر عن صفات النفس في صميم المادة ، فهناك نراه يتدرج من التعلق بجمال
الأجساد إلى التعلق بجمال النفوس وحينما لك السالك أن جمالاً واحداً بعينه
هو الذي يجعل النفوس الجميلة – جديرة بالحب ، فإنه عندئذ سرعان ما يتحقق
من أن ثمة جمالا معنويا هو الذي يجمع بين شتى النفوس الجميلة ، فإذا ما انتهى
إلى هذه الدرجة كان عليه أن يصعد إلى جمال النظم والقوانين ، إلى جمال العلوم
النظرية ، حتى يقف على جمال كل ضرب من ضروب المعرفة ، وهكذا يتسنى
للسالك أن يتحرر من عبودية التعلق بحمال فتى بعينه ، أو جمال رجل بعينه
أو جمال نظام بعينه ، لكي يتجه بكل أنظاره نحو محيط الجمال الشاسع السارح
في الكون كله!!، فلا يلبث أن يجد في مثل هذا التأمل بذور الحكمة التي قد تمكنه
فيما بعد من أن يجتني ثمار المعرفة الحقيقية ، ولا يزال السالك ينتقل من جمال إلى

جمال ويصعد من علم إلى علم حتى ينتهي في خاتمة المطاف إلى رؤية الجمال الكلي الثابت، ذلك الجمال الأزلي المطلق الذي هو الغاية القصوى لكل من الحب والفكر والعاطفة ، وعندئذ نراه يتوقف لكي يتأمل ذلك الجمال العجيب الذي تكبد كل هذه المشاق في سبيل الوصول إليه ، وكيف لا تقف النفس مذهولة أمام هذا الجمال الفريد وهي تشاهد أمامها جمالاً أزلياً لا يعتريه كون أو فساد!! ، ولا يطرأ عليه تزايد أو نقصان ، ولا يمكن اعتباره جميلاً من جهة ودميماً من جهة أخرى ، أو جميلاً في وقت ، وغير جميل في وقت آخر، أو جميلاً في مكان مان آخر إلخ ، (إيه يا عزيزي سقراط) إن الشيء الوحيد الذي يخلع على هذه الحياة قيمتها إنما هو ذلك المشهد ، مشهد الجمال الأزلي الأبدي) (٥).

يقول نجم الدين محمد ابن اسرائيل في داليته الجميلة:

وزار على شحط المزار مطولا	على مغرم بالوصل لم يتعود
فياحسن ما أهدى لعيني جماله	ويابرد ما اهدى على قلبي الصدى
وياصدق أحلامي ببشرى وصاله	ويانيل آمالي ويانجح مقصدي
تجلى وجودى إذ تجلى لباطنى	بجد سعيد أو بسعد مجدد
لقد حق لى عشق الوجود وأهله	وقد علقت كفاى جمعا بموجدى

ولعل في هذا التدرج البديع للحب من مرتبة الحب الجسدي إلى الحب العقلي فالروحي فالمثالي في مأدبة أفلاطون في تصويره الحب - ما دفع جميع مفكري وفلاسفة العرب إلى التأثر به وتصويره في كتاباتهم عن الحب: ابتداءً بإخوان الصفاء وخلان الوفاء، ومروراًً بمحمد بن أبي داؤود الظاهري وابن حزم حتى نصل إلى (رسالة العشق عند ابن سينا) حيث نجد هذا التدرج للحب

والجمال من الصورة الجسدية الجميلة للكائن مرورا بجميع الكائنات صولا إلى الصورة الجميلة للنظام العقلي والمعنوي غير الحسي، وانتهاء بالجمال الكلي الأزلي في عالم المثال الخالد الذي لا يغلفه جسد ولا يعتربه حس ولا تحتويه مادة، ولا تشوبه رغبة، ولا يحده زمان أو مكان . بل هو تجلي جمالي أزلي فياض يشع بالنشوة والحب والخلود في كل اتجاه، ولقد تأثر ابن سينا في رسالته عن العشق بهذا التصور أيما تأثير، وجعل العشق صعودا وتساميا شطر قلة الكمال والجمال والجلال المنعثة عن الجمال الأزلي الكلي، فالعشق عنده نوعان : عشق شهواني يولد جمال الأجساد للحفاظ على صيرورة الحياة وعشق روحاني يولد جمال العقول وهو الحب الذي يحدو الأرواح إلى بلاد الأفراح .

لكن هل يستطيع العقل أن يفسر الحب؟ بالطبع لا يستطيع العقل أن يفسر الحب!! لكن الناس تميل في العادة إلي تعليل الحب أو تفسيره أو الوقوف على حقيقته وسره!! ولقد أعياهم البحث والتفسير ولم يقفوا على سر الحب، ولكن الواقع أن الإنسان يحب لمجرد الحب، دون أن يكون هناك أي مبرر عقلي للحب سوى الحب نفسه، فالحب ينشأ على حين فجأة مثل بزوغ النور وتحت تأثير إلهام علوي مباشر، وكأنما هو " بالاس أتينييه " (*Pallas Athene*) التي تحكي الأساطير اليونانية أنها ولدت راشدة عاقلة مرة واحدة ، فليس للحب مقدمات بمعنى الكلمة ولربما ينشأ الحب عن الحب نفسه ... وكما أن المرء لا يتعلم كيف يريد . فهو لا يتعلم أيضا كيف يحب ، ... فليس الحب بمعناه الصحيح ، ومجرد عاطفة نسبية تترتب على عملية تفضيل أو مقارنة أو حساب نفعي ، بل هو كشف مطلق ، وإلهام مفاجئ ونتيجة بلا مقدمات وسلنا نعي أنه ليس للحب تاريخ ، وإنما نحن نعي أنه ليس

ثمة نسبة أو تدرج في الحب " لأن الحب على حد تعبير جانكافيتش " حد أقصى وغاية عليا ، وخير أسمى في ذاته . ولا شأن له بالأعور الذي يعد نفسه سلطانا في بلاد العميان(٦) .

والحب الصادق هو حب كلي، أو قل هو حضرة وجدانية ذكية كلية، لا تعرف القسمة أو الحسابات أو المقارنات أو حتى التآني العقلي الرزين ، فالحب متى ظهر ويتجلى في أفق حياتنا يستعلن كل شيء في وجودنا الداخلي والخارجي معا، فالحب شمس داخلية تشرق في قارة أعماقنا الغامضة فتسرع على كياننا كله فتنيرنا كلنا دفعة واحدة، حتى لترعشنا كهرياء وجودية كبرى رعشا رهيفا غامضا متصلاً فتضى وجودنا إضاءة كاملة من جميع نواحيه، وتستولى على جميع كياننا من أقصاد إلى أقصاه، فتشرق أنفسنا على أنفسنا فنرى أنفسنا لأول مرة على ما نحن عليه حقيقة لا وهما . وعندما تكتشف أنفسنا نحس كأننا قد خلقنا لأول مرة في الدنيا وكأننا نرى أنفسنا لأول مرة في الحياة ، فنرى الزهور زهوراً فعلاً، ونلمس الضياء بحواسنا الخمس بالفعل، ونحس أننا فوق الزمان فنكون الزمان وأكبر منه وأبعد من المكان فنكون المكان وأوسع من حدود جسدنا وأعضائنا، بل نحس بأننا أكبر من كل الحدود ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، وكأن شمة روحا من الألوهية تحل فينا عندما نحب!! فنرى كل شيء مضاعفا زاھيا متجددا، بل نراه في صورة أبدية تتجاوز حدود عمرنا الخاطف القصير، لننساح في الزمن الكوني الكبير، يقول حميل

بشبة الشاعر العذري الشهري :

عَلِقْتُ الْهَوَىٰ مِنْهَا وَلَيْدًا فَلَمْ يَزَلْ إِلَى الْيَوْمِ يَنْمَى حُبُّهَا وَيَزِيدُ
وَأَفْنَيْتُ عُمْرِي بِانْتِظَارِي نَوَّالَهَا فَبَلَّتْ بِذَلِكَ الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ

فلا أنا مرذودٌ بما جنّت طالباً
ويقول أيضاً:

ولا حُبُّها فيما يبيدُ يبيدُ

ومن بعد ما كنا نطافا وفي المهد
وليس إذا متنا بمنفعي العهد
وزائرنا في ظلمة القبر واللحد

تعلق روعي روحها قبل خلقنا
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً
ولكنه باق على كل حالة

وشبيه بهذا الحب الذي لا يفنى ولا يزول والذي هو أقوى من الموت ، حب
عروة بن حزام عندما ربط بين الحب والجنون والسحر. أو قل جعل تفسير قوة الحب
فوق حدود طاقة العقل فقال:

وعراف نجد إن هما شفياني
ولا رقية إلا بها رقياني
بما ضمنت منك الضلوع يدان

بذلت لعراف اليمامة حكمة
فما تركا من سلوة يعرفانها
فقالا: شفاك الله! والله مالنا

وهذا يذكرنا بالتصوير الأفلاطوني للحب الذي يرى الحب اتصال النفوس
التي انفصلت في الأرض والتي عندما تحب تتذكر قوة اتصالها الأول في أصل
عنصرها الرفيع في العالم العلوي والمثالي، وبالطبع فإن أفلاطون كان مهتما
بملاحظة تغير الحب وجمال من خلال فلسفته في الجدل الصاعد الموزع على مراتب
عدة من الحب: تبدأ من الأدنى للأعلى حتى تصل إلى عالم المثال، فقد نظر أفلاطون
للحب في مؤلفه المائدة أو الوليمة Symposium على أنه " ((التمتع بالجمال
في حقيقته السامية، فإننا من خلال تحقيقنا للأشياء نصل إلى حالة نوبان كياننا
في هذه الحقيقة السامية الشاملة، وإلى اتحاد كامل بها، لأن الحب من وجهة نظر
أفلاطون - تساعد ما ليس بكائن إلى مرتبة ما هو كائن ، ويرى أفلاطون أن للحب

مصيرا لا يقاوم وقوة تدفع بالعاشقين إلى أن يكون كل منهما في أحضان الآخر فإذا ما اتصل العاشق بنصفه الآخر أحس بشعور الصداقة والقرابة والحب، ورفض العاشقان الانفصال كل منهما عن الآخر ولو لولادة قصيرة) (٧).

وقد يكون العاشقان عند أفلاطون رجلا وامرأة أو أستاذنا وتلاميذه، أو أي صورة أخرى من صور الحب النفسي الرفيع لكن أفلاطون فرق بين نوعين من الحب حب يرتبط بالجسد وآخر يرتبط بالروح فأما الحب الذي يرتبط بالجسد فهو أدنى مرتبة من الحب الذي يرتبط بالروح والذي يكون صادقا ويوصل صاحبه إلى السعادة الحقيقية، ولهذا شاع بين الناس مصطلح " (الحب الأفلاطوني) عندما يرتبط الشخصان ارتباط روح ومثال دون أي غرض جسدي أو دنيوي، بينما يسبق (أريستوفان) الشاعر الكوميدي اليوناني قصة فكهة من واقع خياله الأسطوري الابتكاري - يجسد فيها كيف نشأ الحب، فيزعم أن البدايات الأولى لخلق الكائنات لم تكن بين ذكر وأنثى بل كانت بين ذكر وأنثى وخنثى تجمع بين خصائص النوعين السابقين وكان كل كائن من هذه الكائنات الثلاثة مستديرا في خلقته على صورة الكرة الضخمة له أربع أيدٍ وأربع أرجل وأربع آذان ووجهان وقد ساق الغرور هذه الكائنات إلى أن تتمرد وتثور على الآلهة فغضب عليها الإله الأكبر " (زس)" فشطر كل كائن من هذه الكائنات الثلاثة شطرين عقاب لها، ثم مضت هذه الأشطر المشطورة في ألمها وشقائها تبحث عن كمالها واتصالها واتساقها مع شطرها الغائب عنها أملا في الامتزاج به كما كانت عليه عند بداياتها الأولى قبل غضب كبير الآلهة عليها، وعند تمام الامتزاج والاتصال تبدأ شرارة الحب في الاشتعال، الحب الذي هو بحث عن السعادة المفقودة، وأمل في الاتصال بجزء جوهرى وأصيل من وجودنا

الغائب عنا . ، وفي مأدبة أفلاطون نجد فيدروس أول المتحدثين - نراه يسلم " مع هزود وغيره من الشعراء بأن إيروس إله عظيم من أقدم الآلهة ، وأنه لم ينحدر عن أم أو أب ، وعندما ينهض " أجاثون " للكلام ، نراه ينكر قدم هذا الإله ، لكي يؤكد أنه أصغر الآلهة وأحدثها ، وإن كان أجملها وأقدرها على هدايتها ، ثم يجيء دور سقراط في الحديث فنراه ينكر تماما ألوهية إيروس ، لكي يجعل منه مجرد مساعد قدير أو موجه حكيم يستطيع أن يقتادنا إلى الجمال الأزلي المطلق ، ... وإذا كان سقراط قد أنكر الألوهية على " إيروس " فهل يكون معنى هذا أن الحب بائد قد كتب عليه الغناء ؟ هذا ما يجيب سقراط عليه بقوله : إن الحب جني عظيم أو روح كبير يحتل منزلة وسطى بين الآلهة والبشر ، فهو ليس خالداً ولا فانياً ، وهو ليس حكيماً ولا جاهلاً ، وهو ليس خيراً أو شريئاً ، وهو ليس حميلاً ولا قبيحاً ، وإنما هو في مرتبة وسط بين الخلود والغناء ، بين الحكمة والجهل ، بين الخير والشر ، بين الجمال والقبح وهنا يلجأ سقراط إلى اصطناع الأسطورة فيروي لنا تاريخ ميلاد " إيروس " ويقرر أن ذلك قد تم ليلة مولد أفروديت وخلاصة هذه الأسطورة أن الآلهة قد شاءت أن تحتفل بميلاد أفروديت . فأقامت وليمة كبرى كان من بين الذين حضروها " بوروس (أو الفبي) وبعد العشاء ، رأت بنيا *Penia* (أو الحاجة) تلك المأدبة ، فجاءت تستجدي ، ووقفت إلى جوار الباب ، وكان بوروس (أو الغني) قد سكر لفرط ما شرب من الرحيق فخرج إلى حديقة " زيوس " وغط في نوم عميق !! ولمحته " بنيا " فشاءت أن ترزق منه ولداً مدفوعة إلى ذلك بما كانت عليه من فقر وعوز ، ومن هنا فقد رقدت (بنيا) إلى جوار بوروس في غفلة منه ونشأ من تزاوجهما " (إيروس) " ونظراً لأن عملية حبل (بنيا) قد تمت ليلة مولد أفروديت نفسها ، فقد

نشأ إيروس محبا للجمال ، حتى إنه لم يلبث أن أصبح خادما لأفروديت ورفيقا لها ونظراً لأن إيروس قد كان شرة لتزاوج الغني والفقير أو الثراء والحاجة ، فقد ورث عن أمه بنيا الفقر والجهل والضعف ، كما ورث عن أبيه بوروس الغنى والحكمة والشجاعة^(٧) .

وبهذا التصور الأسطوري لحقيقة الحب نرى مدى التناقضات المبدعة الكامنة في عمق بنية الحب نفسه فهو عوز وافتقار ، وثراء وخصوبة ، وقرب وبعاد وحضور وغياب ، وهو إحساس عميق بالخلاء ، وشوق ونزاع إلى الملاء في وقت واحد فالأسطورة تحتوى على عوالم روحية وحسية ومثالية وعقلية لا تنتهي من التأمل والتفسير والتأويل ، فهي تعني أيضا أننا كلنا نحس بمثل ما أحست به ((بنيا)) التي تجسد الفقر والحاجة والازواء ، فمن خلال هذه الأحاسيس نحن نحس بضعتنا وبؤسنا الإنساني في غياب الإحساس بالحب ، كما نحس بالوحدة والاستيحاش المؤلم والفرغ المزعج في غيبة الحب ، كما نحس أن كل العالم – حتى لو امتلكنا كله – هو صورة من صور العدم والعداوة واللامبالاة في غياب الحب وكل واحد منا رجلا أو امرأة لا يهدأ له بال . ولا تقر له عين ، في عدم تحقيق أسطوره الخاصة في الحب نحن مخلوقات ناقصة ووحيدة ومتناهية وموحشة ومظلمة في غيبة الحلم والشوق والتلهف للحبيب ، الذي يصنع أسطورتنا الخاصة في الحب .

وهناك تصور أسطوري يرى أن المفاهيم الأولى للحب قد نبعت من الأساطير فطبقا لتصور " هزيود الشاعر الملحمي الإغريقي الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد ، فإن العالم في البدء كان فوضى . فقام روح الزمن (كرونوس) بوضع بيضة فخرج منها (إيروس) ومعناه الحب ، وخصه بفعل التألف والتناغم ، نقيض

الفوضى ، ثم أصبح إيروس رمزاً للرغبة عند الكاتب المسرحي المعروف اسخيلوس (٥٢٢ - ٤٥٦ ق.م) ونظراً لتعدد الرغبات ولأن إيروس لم يعد إلهاً ، بعد أن ورد اسمه في الإلياذة فقد أصبح " الحب مثل إيروس عدة أصناف (إيروسات) وهو المصطلح الجديد الذي وصفه ديوربيدس (٤٨٤ - ٤٢٤ ق.م) (٨) .

ووجب أن ننظر للأسطورة هنا على أنها وجه من وجوه نظرة البشر للحقيقة التي تؤطر الحاجات الإنسانية الأصيلة لدى البشر " فالأسطورة بداهة ليست خرافة ولا إشباعاً وهمياً ، الأسطورة مواجهة لا تخلو من طابع درامي أو جدل (٩) ولعل تفسير مصطفى صادق الرافعي لسرجازيية الجميل يكون هو الآخر أقرب إلى التفسير الأسطوري على الرغم من أنه يعيش معنا في القرن العشرين إن الإنسان بطبعه لا يستطيع أن يعيش ويفرح ويألم ويتخيل ويستشرف ويفسر بعيداً عن الإطار الأسطوري الذي يحكم رؤيته للعالم من حوله ، فاللغة التي تكون أفكارنا ووعينا ولا وعينا معاً هي صورة من صور الأساطير ، لأنها تقارب ظلال الحقيقة من خلال سقوط رموز اللغة على ماء الحياة ، ولا تواقعها واقعة حسية مباشرة في ذاتها ولذاتها .

فإذا تأملنا تفسير مصطفى صادق الرافعي لسرجازيية الجميل المحبوب وجدناه يعلل ذلك بأنه يمثل جزءاً لا يتجزأ من القوة السماوية الجاذبة " فالله حين يبدع الجميل يرسل في دمه ذرة من مادة الكواكب التي هي سر عشقه وجاذبيته الذي يتسلط به على العاشق ويبث في دمه النار ، ويخضع بهذه القواعد لحبيبين في الوقت نفسه ، ودلال الجميل المعشوق هو اضطراب تلك الذرة التي تتحرك فتجعل الجميل يتلألأ بالنور من كل جهاته وتضع فيه معنى خيالها ، أما عاقبة مصادمة

الحبيب فكعاقبة اصطدام الأرض ببعض الكواكب ، تتحطم دون أن تعطل قوة الجذب التي للكواكب(١٠).

ولورحنا نعدد أنماط وأشكال الأساطير التي عالجت البدايات الأولى لعالم الحب فوق الأرض ما كفتنا مجلدات ومجلدات ، فالحب مثل النور ، الكل يراه والكل يجهل كنهه وسر مبتداه ، وسر منتهاه ، حتى لو تذرع الشعراء بعقل فكرية وأسطورية ودينية ونفسية وخيالية لذكر سبب نشوء الحب يقولهم:

الحب أول ما يكون لاجابة يأتي به وتسوقه الأقدار
حتى إذا اقتحم الفتى لجج الهوى جاءت أمور، لا تطاق كبار
من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرأيت عينا للبكاء تعار
ولقد حاول الشاعر عبد الرحمن شكري تحليل سر سحر اللحاظ الأنتوية
وما تسكبه من شهد روحي خفي تتحدر أمامه الأرواح والعقول فقال:

وأنت أدنى من نجى الرجاء وأنت أحلى من كؤوس الشمال
فإن في ذكراك براء العليل ورب ذكرى مثل شوك السلال
في لحظ عينيك عقل الهوى نفوسنا في أسر ذال العقال
تطل في العين معاني النفوس والنفس أسمى ما يحب الرجال

ولكن هل استطاع شكري أن يقف على سر النظرة الأنتوية الحاملة؟؟ بالطبع لم يستطع وإن حاول الاقتراب من عالم الأسرار فقط!! كما وقف من قبله ابن الرومي منذلا أمام سرالحب في نظرة الحب للحبيب فقال:

ليت شعري إذا أدام إليها كرة الطرف مبدئ ومعيد
أهي شئ لا تسأم العين منه أم لها كل ساعة تجديد

وعلى الرغم من كل ذلك يظل الحب فوق طاقة العقل فى التفسير، ولقد أورد ابن داؤود الظاهري فى كتابه عن الحب " الزهرة " قولاً لأفلاطون يؤكد فيه عجزه عن معرفة أمر الحب وحقيقته ، وكيفية نشوئه فقال : " ما أدري ما الهوى غير أننى أعلم انه جنون إلهي لا محمود ولا مذموم " ثم ذكر ابن داؤود الظاهري قول الشاعر :

إن المحبة أمرها عجب تلقى عليك ومالها سببُ

وعلى الرغم من تأثر ابن حزم الأندلسي فى كتابه عن الحب " (طوق الحمامة فى الألفة والآلاف) " بالنظرية الأفلاطونية المعروفة فى الحب فى قوله : " ((وقد اختلف الناس فى ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع)) وهذا كلام يذكرنا بكلام أفلاطون كما ذكرناه فى مبتدأ هذه الدراسة ، لكن ابن حزم قد استطاع من خلال نظريته الخاصة للحب أن يرد نظريته للحب إلى الواقع والشرعة معا عندما أقرب بأن " ((الحب استحسان روحاني وامتزاج نفساني " يوحيه الله تعالى بين القلوب إذ يقول تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

[سورة الأعراف: ١٨٩]

" فابن حزم بذلك يقين بين الواقع والمثال معا فى تفسير سر الحب ونشوئه يقول ابن حزم : ((الحب أعزك الله ، أوله هزل ، وآخره جد ، ودقت معانيه لجلالته عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة) ، ثم يفصل ابن حزم فى كتابه (الأخلاق والسير فى مداواة النفوس)) مراتب هذه المعاناة فيقول ((درج المحبة خمسة: أولها الاستحسان: وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور عليه حسنة أو يستحسن

أخلاقه، وهذا يدخل فى باب التصادق، ثم الإعجاب به: وهو رغبة الناظر فى المنظور إليه وفى قربه، ثم الألفة: وهو الوحشة إليه إذا غاب. ثم الكلف: وهو غلبة شغل البال به وهذا النوع يسمى فى باب الغزل بالعشق، ثم الشغف، وهو امتناع النوم والكل والشرب إلا اليسر من ذلك، وربما أدى ذلك إلى المرض أو إلى التوسوس أو إلى الموت وليس وراء ذلك منزلة فى تنهاى المحبة أصلاً))^(١١).

ثم يأتى إخوان الصفا وخلان الوفا، فنراهم فى رسائلهم عن الحب أدق مسلماً وأنفذ بصيرةً فى معرفة أسرار الحب ومحاولة الرجوع إلى علله وأسبابه الحقيقة الخفية والظاهرة المرتبطة بالواقع والحياة وأحوال القلوب والأرواح، وفى الرسالة السابعة والثلاثين من رسائلهم نرى هذا التفنيد الفلسفى والاجتماعى والنفسى الدقيق والنافذ لمن زعموا أن الحب مرض نفسانى أو جنون إلهى أو همة نفس فارغة أو فعل من أفعال البطالين الفارغى الهمم الذين لا شغل لهم.

يقول إخوان الصفا " ((ولعمري إن العشق يترك النفس فارغة من جميع الهم إلا هم المعشوقون، وكثرة الذكر له والفكرة فى أمره وهيجان الفؤاد، والوله به وبأسبابه ولكن ذلك من فعل البطالين الفراغ كما زعم من لا خبرة له بالأمور الخفية والأسرار اللطيفة، ولا يعرف من الأمور إلا ما يحكى للحواس وظهر للمشاعر، وأما الذى يدرك منها بصفاء الذهن، وجودة التمييز، وكثرة الفكر، وشدة البحث، ودقة النظر، فهم بمعزل. وذلك أن الذين زعموا أن العشق هو (مرض نفسانى) أو قالوا إنه (جنون إلهى)، فإنهم قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يعرض للعشاق من سهو الليل، ونحول الجسم، وغمور العين، وتواتر وتوتر النبض وتصاعد الأنفاس الصعداء مثل ما يعرض للمرضى، فظنوا أنه مرض نفسانى وأما الذين زعموا أنه جنون إلهى

فإنما قالوه من أجل أنهم لم يجدوا لهم دواء يعالجونهم به . ولا شربة يسقونها إياهم فيبرؤون مما هم فيه من المحنة والبلوى إلا الدعاء لله بالصلاة والصدقة والقرايين في الهياكل ورقى الكهنة وما شاكل ذلك ، كما حكاه العاشق بقوله ، وهو عروة بن حزام قتيل الحب :

بذلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إن هما شفياي
فما تركاه من سلوة يعرفانها ولا رقية إلا بها رقياني
فقالا : شفاك الله . والله مالنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

وبهذا التصور ينزل إخوان الصفا تفسير مشكلة الحب من غموضها الأفلاطوني المتسامى . إلى أرض الواقع . ودنيا الناس وطبائع الأمزجة والقلوب لكنهم لم يتمكنوا فيما نرى من تفسير كنه الحب وسر مبتداه ، وكيفية اعتلاجه في الغوادر ، وقد ذكر ابن حزم أبوابا من هذه المعاناة الوجودية الحسية التي مارسها في حياته . أو مارسها أصدقاؤه فينقلها لنا نقل خبر وعيان وممارسة في أبواب متعددة من كتابه " (طوق الحمامة في الألفة والآلاف) " فنراه يذكر " (علامات الحب - باب من أحب في النوم - باب المراسلة - باب التعريض بالقول في الحب - باب الإشارة بالعين ثم باب السفير) " إلى غير ذلك من أبواب ذكرها ابن حزم من واقع جراحه ومباهجه وأشواقه الخاصة وأشواق المجتمع الأندلسي على أيامه فقد كان الأندلسيون يطعمون فاكهة الحب ليل نهار ، وتبلغ واقعية ابن حزم درجة عالية من الأصالة والصدق عندما يذكر لنا خبرة الحب عبر وهجها الحياتي الحي في باب " (الإشارة بالعين) " والذي يصل به إلى مدى أبعد مما وراء اللغة نفسها فهي أدخل في باب دلالة السكوت الفصيح المبين . يقول ابن حزم راصدا العلاقة بين

لغة إشارات العين وحقيقة الحب ((والحواس الأربع أبواب إلى القلب ، ومنافذ نحو النفس والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملا ، وهي رائد النفس الصادق ودليها الهادي ، ومرآتها المجلوة التي بها نقف على الحقائق ، وتميز الصفات ، وتفهم المحسوسات ، وقد قيل ليس المخبر كالمعاین، فالإشارة بمؤخرة العين الواحدة نهى عن الأمر، وتغيرها إعلان بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسر نظرها آية الفرح ، والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه والإشارة الخفية بمؤخرة كليتهما سؤال وقلب الحدقة من وسط العين إلى المؤق سرعة شاهد المنع ، وأعلم أن العين تذب عن الرسل(١٣).

والتأمل في هذا الكلام البليغ الرائع يدرك على الفور أن ابن حزم عالم نفساني حاذق يمتلك نفسا طويلا فى التأمل ، وصبرا بصيرا فى الإحاطة بعلم دلالات إشارات العيون(طبيب روحانى حضرته) التي هي أدخل فى دلالة النصبه عند الجاحظ منها إلى دلالة اللغة المعتادة، ومعنى دلالة النصبه عند الجاحظ تعبير أجساد الأشياء والموجودات عن نفسها بنفسها دون حاجة إلى كلام أو لغة، ولعل الفطرة العفوية لكلام الجسد عن نفسه لدى المرأة أصل تكويننا ، وأعمق تصرفا من الرجل بخصوص ثراء لغة الجسد عندها، ولهذا ونظرا للقدرة الهائلة التي تمتلكها المرأة فى كتمان حبها ، ودلالها الطاووسي المجنح فى ابتداء ألوان زاهيات من صور الدلال الأنثوي – فإنها تجيد تعبيرات الصمت التي تظهر فى التلميحات والغمزات والعبسات والنظرات واللفقات والإشارات حتى " ((ليتألف من مجموع هذه الأشياء لغة خرساء ، والمرأة – بلا شك – تتفنن هذه اللغة أكثر من الرجل ، وتحيط

بدقائقها وأسرارها ، وتنفذ إلى معانيها بشكل عجيب رائع ، لذا لا يمكن أن يخفى على المرأة سر رجل بينما تخفى معظم أسرار النساء على معظم الرجال) (١٤) .

ولكن إذا تركنا كل هذه الحقائق وذهبنا إلى اللحظة الأولى التي تنبعث منها شرارة الحب وفتشنا عن سرها رجعنا ثانية إلى حالة من الجهل التام بحقيقة ما حدث كيف حدث ما حدث؟ بين قلبين تناديا فتجاذبا فتلاحما فذايا !!؟ ما السر الكامن وراء ذلك ؟ يرى معظم أصحاب كتب الحب في موروثنا العاطفي العربي أن الحب بدايته لاجحة وهذل ولكن آخرته جد ، فأوله اختيار ثم ينمو بنا صوب لجح بحار الإجبار ، فقد رأى ابن القيم الجوزية أن الحب بدايته اختيارية إرادية تتجسد في النظر والتعرض للمحبة ثم يأتي الحب غير الإرادي بعد ذلك وبالطبع هذا كلام لا يتسنن أوله مع آخره، وهو دليل على الحيرة أكثر منه دليلا على البرهان والوقوف على وجهة نظر ترضي العقل والمنطق. وقد أقر ابن حزم الأندلسي قتل ابن القيم بأن الحب أوله هذل وآخره جد وهو مجهول العلة والسبب . فلو كان سببه جمال المحبوب ، أو حسن صورته الجسدية لما وجد المحرومون من الجمال بصورته المعنوية والجسدية من يحبهم!! ولو كان الحب يتم بسبب تمام الأخلاق بين الحبيبين ، لما أحب الأحسن خلقا الأدنى خلقا ولما تلاقت القلوب المختلفة بعضها عن بعض ، والملاحظ في الدنيا أن الحب قد يتم بين قلبين جد مختلفين وقد يتم من طرف واحد دون الطرف الآخر وقد يحب الأكبر سنا الأصغر سنا والعكس، وقد يتم الحب في المنام والخيال أيضا ، وكل هذه الظواهر العاطفية الحية والصادقة لا نجد لها تفسيراً ولا تبريراً إنها أشبه بومض الفجر ، وخطف البرق

، وشعشعة النور، وهدير الصمت في أعماق المحيطات ، وأسرار غلاثل الليل التي تغلف أسرار المدن، فلا نعرف ما سرها وما كنهها ؟ لا نعرف من ذلك شيئاً.

والمعاصرون أيضاً مثل القدماء في تيه من الأمر ، فقد أقر مصطفى صادق الرافعي ما أقره ابن حزم سابقاً فقال في ((رسائل الأحزان) (ولكني جئتُها وأنا أقدر أن أراها كما هي ، أدعها كما هي ، فإذا القدر مخبئ فيها، وإذا هو قد طلع علي في ألاحظها، وإذا أنا أراها فلا أدعها، وكان طريقي إليها بين رؤيتها وتركها، أبدأ وأعود فلما تخطيت، أولها لم أر لها آخرًا، ولما بدأت عدلت بي إلى الناحية التي كنت أجهلها فلم أدركيف أعود) (١٥) ، وبهذا التصور فالحب يقع بصورة إرادية منذ النظرة الأولى ثم يصير بعد ذلك قهياً يرفع علينا سيوف طاعته فلا نملك غير أن نطيع، فنحن في الحب مثل الفراشات الربيعية الرهيفة التي تصبو إلى الضوء بصورة غريزية لا مفر لها منها!! مثله مثل عباد الشمس يتجه بصورة فطرية غريزية ناحية ضوء الشمس!! ويتنادى قلب المحب للحبيب بمقدار ما يتنادى ضوء الشمس لسر الخضار الساري في أوراق الشجر، إن الضوء يطلب ذاتياً أعماق الأوراق، مثلما يطلب ضوء القمر تلقائياً أعماق البحار. وعندما تحب المرأة تلبى جميع نداءات جميع الرجال في قلب رجل واحد يحبها وتحبه، وعندما يحب الرجل يلبى جميع أصوات النساء اللاتي يسكن قلبها فثمة رجال كثيرون ونساء يتلبسون عقلى وروحى وجسدى، كلهم يفريهم الظماً لنبع فياض مزحوم بشعاع الشمس وحضرة القبة الزرقاء، وحنان الشفق المنير في قلب الحب، وليس غير المرأة من يتخمر في رحابها الفياض هذه الخمر الألاهية الحلال خمر الأنوثة والحب.

وربما أرجع الفلاسفة العرب القدامى هذه القوة القهرية لجاذبية الحب إلى مدارات الفلك والنجوم، فثمة تمازج بين الطباع والأمزجة بناء على دورة الفلك يقول أبو هزبل العلاف " (لا يجوز في دور الفلك ، ولا في تركيب الطبائع ، ولا في الواجب ، ولا في الممكن أن يكون محب ليس لمحبيه إليه ميل) (١٦).

ولكن ماذا يقول العلاف إذا وقع الحب من طرف واحد من جهة المرأة فقط أو من جهة الرجل فقط؟! وهل تفسر دورة الفلك واختلاف مواقع الجاذبية فيها اختلاف الجاذبية بين قلب متوله وقلب قاس لا يبادلها حبا بحب؟!، مثلما حدث للمرأة العربية التي قالت تعاتب زوجها الذي لا يبادلها حبا بحب ولا لهفة بلهفة أسأل الذي قسم بين العباد معايشهم أن يقسم الحب بيني وبينك ثم أنشدت :

أدعو الذي صرف الهوى مني إليك ومنك عنى
أن يبتليك بما ابتلاني أو يسمل الحب منى

ويبدو أن كل شخصية إنسانية لها مجالها الإنساني الخاص بها وهي تتوافق معه دوماً، وتتوق إليه، بل يكون كل جهدها التوجه إلى قبلته عبر العمر كله!!

يقول الشاعر عبد الرحمن شكري:

ورب نفسين مثل اللجتين إذا تهادتا نحو شط البسين تبتدر
تسربت أنفسي في أنفسي غمضت آمالها أمل أوطارها وطر

غير أنه غير ممكن التحقق من هذا الاندماج العفوي بين قلبين بصورة علمية صارمة أو حتى واضحة للعقل الموضوعي المتبع بين الناس، وهذا المجال الإنساني الذي تتوافق معه هذه الشخصية هو من الخطورة بكان، إذ تعد جميع القضايا المصيرية والحيوية السابحة في محيط حياتنا منحصرة في هذا المجال السني

الخفى، ووعلى هذا الأفق الروحي الغامض الشفيف، والذي بناء عليه تحب النفس وتنفرد، تسعد وتشقى، تتحقق أو تتمزق، وهذا ما نراه الآن لدى العلم المعاصر الذى يرى أن للجسد الإنسانى حرمة كهربية خاصة، فالجسد يمشى فى هالة من الكهربية الروحية والجسدية الخاصة به، مما يمشى بخصوصية الجسد الإنسانى والرجالى معا، وهذه الخصوصية الكهربية الروحية والجسدية خفية على الوعى والعلم حتى الآن، ومن هنا لا نستطيع أن نعلل لماذا نحب ونفيل لبعض الأشخاص دون سبب واضح، بل دون وعى منا أحيانا، وقد ننفر من بعض الشخصيات نفسيا وإن كانت مقبولة فى نظر العقل الموضوعي ودون سبب واضح أيضا، ولنا أن نساأل:

هل معنى هذا أن الكون كله مجهز بصورة عفوية قبلية للتلاقى والإنسجام أو للتنافر وعدم الالتحام، وما علينا نحن البشر سوى التحقق من إشاراتنا الفطرية الخفية عندما ينادينا الحب فى الكون وينتدبنا القلب لمهمته الخفية الشريفة؟!

وهل يعنى هذا أن كل من يعانى نفارا أو شتاتا مع حبيبه أو مع محيطه هو ضد نفسه بنفسه فى المقام الأول،؟! هل الرادار الإلهي الكامن فى قلوب الكائنات والذي يحركها بصورة فطرية عفوية هو نفس الرادار الذى يحركنا أيضا فى الحب والقرب والبعد!! وماذا يحدث إذ ابتعدنا عن هذا الرادار؟ لم نحترم نداءاته الخفية العبقرة؟! وماذا يحدث إذا طال على داراتنا الأمد فتغيبشت وتشوشت وحيل نها وبين الإرسال الفضى الصافى الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها؟!!

هل نحن مسؤولون فى هذه الحالة عن مسح صبغة الله فىنا،؟! أو عدم القدرة على الإنصات والإصغاء المبدع لها!! أو حتى إرجاعها حمقا وتهورا إلي حدود العقل

الموضوعى العام بعد أن نصلت ألوانها وبهتت زهوتها البهية فى فطرتنا؟! أليس أصغر طائر فوق الأرض قادر على أن يضخ الحنان الأبدي لأولاده أكثر من أي امرأة انصبغت بجميع ألوان الثقافات العلمية التى تبحث عن كيفية زرع الحنان فى قلب وليدها الطري؟! وعلى الرغم من كل ذلك مازلنا إلى الآن لا ندرك أسرار الحب ولا ندرك مثلا لماذا يكون الحب أحيانا كثيرة من طرف واحد؟! وهذا يشبه من بعض الوجوه ألوانا من الحب ذكرها ابن حزم مثل الذين يحبون فى المنام والذين يحبون من مجرد وصف صورة المحبوب ، وهذه كلها وقائع حية ملموسة فى عالم الحب ولكن أسرارها مجهولة للمفكرين والفلاسفة وأصحاب الطب النفسي وأيضا نحن لا نعرف لماذا كان الحب محور حياة المرأة حتى يستغرقها من قدمها إلى رأسها، وكأنها غرقت فى بحر من النشوة لا تبرد منه فكاكا، لماذا يكون الحب فى حياة الرجال حادثة سعيدة، ويكون فى حياة النساء قصة حياة كاملة، وتفسيرا لوجودها بأكمله؟! حتى كأن المرأة تولد أو تخلق مرتين . مرة عندما توجد فى الحياة وهذه هى الولادة البيولوجية، وأخرى عندما تحب وهذه هى الولادة الوجودية؟! وهذا التصور قد تردد على لسان نيتشه بقوله " (إن الواقع أن لفظ الحب – وإن كان إحدا – إلا أنه يعنى شيئين مختلفين تماما بالنسبة إلى كل من الرجل والمرأة وما تفهمه المرأة من الحب هو غاية من الوضوح : فإن الحب عندها ليس عبادة فحسب ، وإنما هو أيضا بذل تام للجسم والنفس معا دون تحفيظ ، ودون نظر إلى أي اعتبار آخر كائنا ما كان . وهذه الطبيعة اللامشروطة التي يتميز بها حب المرأة هي التي تجعل من هذا الحب ضربا من الإيمان وأما بالنسبة إلى للرجل فإن الملاحظ أنه عندما يحب المرأة ، فإن كل ما يريده إنما هو ذلك الحب الذي يجيئه من قبلها ، وتبعاً لذلك

فإن الرجل أبعد ما يكون عن أن يتطلب من ذاته نفس ذلك الشعور الذي يتطلبه من المرأة^(١٧).

وكل هذا من الأسرار الغامضات المحيرات، مثلها مثل عناصر الطبيعة: كالماء والضباب والنور والغابات المسكونة بالأسرار الراقدة في الظلام اللانهائي، ففي الحب تنام التناقضات في ملابس الانسجام، وتجلي المتعدد في معرض التوحد ويتراقص الألم في صورة اللذة، ويرقد الكبرياء في صورة الذلة، فكل شئ في دنيانا العادية مقلوب في دنيا الحب والتي هي دائما دنيا غير عادية تقلب كل شئ رأسا على عقب، فالحب سر روحى رهيف قادر على إرهابنا ومعافاتنا معا، ومن ضمن الأسرار العتية لعالم الحب، الطبيعة الأنتوية ذاتها، فالأنتى فى نظرى سر الكون كله وهى مفتاح أسرار العالم، فالمرأة سر غامض تحوطه أصداف السحر ومحار الغوامض، ورمال الهواجس، وأسرار الأحلام، يقول مصطفى صادق الرافعي:

((ما وقفت أمامك مرة حبيبتى أنظر إليك، إلا قلت في نفسي: من هنا يبدأ ما لا يدرك!! فهي تريد الحب وتخشاه، ولا تستطيع العيش إلا في فضاء العواطف والأحاسيس والإلهامات والخواطر والهواجس والأحلام على تنوعها وتشابكها وتغايرها وتنزعها، فالعواطف ما هي إلا فضاء تتقلب فيه روح المرأة وتتأنس بحرية وارتياح، وفي ميادينها تنمو وتشب ولا تشيخ أبداً، وأما الأفكار والعقائد والعلوم والنظريات العلمية والمبادئ الفكرية، فلها جو تختنق فيه روح المرأة كما يختنق العصفور في إناء نزع منه الهواء^(١٨).

ولعل وقوف الرافعي مذهولاً أمام الأفق السري للأنتوية وعدم قدرته على الاهتداء إلى بصيص شاحب من أسراره ينير له غابة الجمال الربانية المرأة - لعل

ذلك يقربنا أيضا من أسرار اللانهاية الكامن في الأنوثة نفسها بوصفها مجلي للحب ، وفيضا للروح ، وتشعبا للأسرار، وتوغلاً في الغوامض الشفشفة الساحرة المرهقة، ولقد عانت كل القلوب الكبيرة الأصبلة أشجان هذا الأبد الكامن في أنوثة المرأة يقول رابندرانات طاغور شاعر الهند الكبير في القطعة من ديوانه (البستاني):

أشد على يديها قبضتي

وأضمها في قوة إلى صدري

وأحاول أن أملاً ذراعي بجمالها

وأنهب بقبلائي ابتسامتها

وأشرب بعيني نظراتها

وأسفاه أين كل هذا ؟

من يستطيع أن يقهر زرقة السماء !؟

أحاول أن أشد وثاق الجمال إلي

ولكنه يقلت مني ، ولم يترك بين يدي سوى الجسد وحده

وفي اضطراب وإعياء أسقط على الأرض

كيف يستطيع الجسد أن يلمس الوردة التي لا يقوى على لمسها سوى

الروح ؟

أليس هذا هو المعنى الشعري الدافق الكامن في الأنوثة الذي يصوره طاغور

بعبرته هو نفس المعنى الذي حير شاعرنا العربي ابن الرومي من قبل في قوله :

أعانقها والروح بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تـدان
وأثم فاها كي تزول صبابتي فيزداد ما ألقى من الهيـمان
كأن فؤادي ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين تمتزجان

فالأنوثة مكمّن الأسرار، ومثوى الأحلام، ومسرح الخفة الوجودية

اللامتناهية، ومخزن التناقضات المتراسلة المتصادية، الأنوثة شفق الوجود يعترينا

في رهافة متداخلة محيرة ينسكب علينا كلنا، يتخلل جميع جوارحنا، ثم لا نستطيع

القبض عليه من أي جهة غزانا، فالمرأة ترفض أن تكون تابعة، حتى ولو كانت

في الحقيقة تريد التبعية " ((فالموقف العقلي المصبوب على قالب فلسفتها

حين تقول : إنني لن أغلب في شيء ولو أنك في كل شيء مغلوب)، وهو نفس

الإحساس الذي اعترى البطلة " جوليا " عند جاك جان روسو حين وجهت خطابها

إلى محبوبها قائلة: يبدو لي أن حواسي ليست سوى قوى لعواطف أكثر نبلا ولم

أحبك لما رأيته فيك، بقدر ما أحبك لما اعتقدته من شعور البعث من ذات نفس

وهذه الصورة المزدوجة من الإحساس بالذات في الحب تمثل إحدى الغوامض الكبرى

والغرائب المحيرة للحب والتي تتماوج أسرارها الخفية بألوان قزحية تفيض بالحركة

والنبض والتبادل والتداخل في ذات الوقت الذي تتجلى للبصر والبصيرة معا ذات

كيان بهيج محدد، لكنها متغلّطة أبدا مثل الشعاع لا يقربها قرار، فالمحبوبة لا تحب

حبيبها كما رأينا لصفة من صفاته الروحية والجسدية، وإضا بسبب هذا الاستغراق

الروحي الكلي في هويته الداخلية الروحية الأصيلة، التي هي أشبه بالتجلي الذوقي

العرفاني الذي يكتشفه المحب في المحبوب، أو هي تكشف للنور الصافي الخالص في طوايانا المجهولة في ذاتنا وكياننا كله، فالمحبة قد أحبت محبوبها استجابة لنداء نبيل يعلو على عواطفها ورغباتها وهواها ، كما أن أنوار المحبوب لم تتجلى في قلب المحب إلا بسبب هذه القوة الروحية الفذة التي شفتت وانسكبت من روح المحبوب على روح المحب ، هذا التداخل المتناقض في ظاهرة الحب بين الرغبة في الحب والتعالي عليه ، والتسليم للمحب والصد عنه في ذات الوقت – يجعلنا نسلم بأن هذا لون من ألوان إيقاظ حريتنا الداخلية الهاجعة فينا، فهي تظل إمكانية قابلة للتحقيق والممارسة حتى إذا جاء المحب نقلها من السبات إلى اليقظة ، ومن الهجوع إلى التجلي ، ومن التبعثر إلى التماسك والتألق والتخلق.

ولعل هذا ما يجعلنا نسلم مع الدكتور زكريا إبراهيم بأن " (أعجب ما في الحب أنه جماع ما في الوجود من متناقضات ، فالمحبون مثلا يميلون إلى العزلة وينصرفون عن الناس ، ويتأون عن العالم ومع ذلك فإن الحب وحده هو الذي يسمح لنا بأن نفهم العالم ، وندرك الطبيعة ، ونحب سائر البشر ، والحب هو الشيء الوحيد في العالم الذي لا يمكن إحالته إلى مجرد أمر أو وصية. ومع ذلك فإن المرء يقدم على أقسى التضحيات وأشق الأعمال في سبيل من يحب ، وربما كان الشيء الوحيد الذي يسندنا ويعضدنا حين نكون بصدد مهام الحياة العسيرة المتبدلة ، هو أننا نؤديها في سبيل شخص آخر ، فالحب هو الذي يسمح لنا بأن نحقق من الأفعال ما تعجز عن تحقيقه أقوى إرادة. اللهم إلا إذا كان المحب إلى جوارها يساندها ويشد من أزرها. والمحبون قد يتوهمون أن الواحد منهم قد جعل للآخر منذ الأزل. ومع ذلك فإن حبهم يبدو وكأنما هو مجرد ثمرة لتلاق عرضي عابر لعبت فيه الصدفة الدور.

الأكبر، والمحبون قد يظنون أنهم يندرجون بحبهم في عالم الأبدية وأن الواحد منهم لا يجب الأخر إلا في جانبه الإلهي الخالد، ومع ذلك فإن كلا منهم يعرف أن لحبه تاريخا ومن هذا التاريخ يتغير ويتطور عبر الزمان ، والمحبون يقسمون على الولاء ويأخذون على أنفسهم عهدا أبديا بالوفاء . ويصبحون مع أرسطو قائلين :

" إن حبا أمكن أن ينتهي لم يكن يوما حبا صادقا " ولكنهم مع ذلك ينكصون بالعهد ، ويتقلبون مع الزمن ، ويكررون القسم الواحد بعد الآخر والمحبون يتمنون الاتحاد ، ويتوقون إلى الامتزاج التام ، وينشدون الامتلاك المطلق ، ولكنهم يشعرون بأن الحب لا يخلو من صراع ، وأن العلاقة بالآخر لا يبد من أن نقرن بالمواجهة والتحدي ، وأن الارتباط السحري الذي يتم بين الأنا والأنت (المحب والمحبيب) لن يكون بمثابة امتلاء مطلق . حقا إننا اعتدنا أن نقول إن رابطة الحب توحد بين الجسمين في روح واحدة ، وتؤلف بين الروحين في جسد واحد .

ولكن هذه الرابطة السحرية التي تجعل من الموجودين موجودًا واحدًا ، ليس من شأنها أن تغلق الدائرة . بل سرعان ما تجيء الإرادة لكي تحطم هذه القوقعة المغلقة ، وكأن إرادة الحب تريد أن تلعو على الحب نفسه) (١٩) ، ففي الحب لا بد من الاستغراق في صورة الصد المتمنع ، والابتعاد المتصنع ، والنفور الظاهري ، وعدم الاكتراث الخادع ، ويبدو أننا في حالات الحب نلبس ثياب المسرح ، وأقنعة الوجود، لأننا نعيش في حالة سر، وحالة غموض، وحالة تعدد ألوان كلها جميل ومتداخل ومستقل أيضا ، فقد نقول نعم ونحن نقصد لا ، وقد نقول لا ونحن نقصد نعم ، وقد نكون في قمة الإحساس والانفعال ونحن نحسب أننا عاقلون تماما ، وقد نكون أمام أعنى الحجج المنطقية ، وأصدق الأدلة الموضوعية لكننا نراها حجبا

واهية مضمحلة ، وهوسا أعمى ، وقد نكون مرضى ونظن أننا أقوى الأقوياء
وقد نكون مجانين ونظن أننا أعقل العقلاء، وفي جميع هذه الحالات نحن
في حالة حب.

ففي الحب نحن أمام قوة خفية لا يمكن دفعها، ولا يمكننا الوقوف أمام قوة
سرما ، فهي قوة مشحونة بالتناقضات والغوامض والمستحيلات الحية ، ففيها شيء
من كل شيء ، فيها من الجنون بمقدار ما فيها من العقل ، ومن الوله المترامي بمقدار
ما فيها من الاتزان العقلي، ومن الخفة بمقدار ما فيها من التماسك، ومن القوة
بمقدار ما فيها من الضعف والتلاشي ، في الحب نحن أمام حالة وجودية كلية
عامة تحوي جميع المتناقضات والانسجومات فهي روح ومشاعر وعقل وخيال وأمل
ودين ودنيا وما فوق الدنيا معا ، فقد تعذب المرأة محبوبها أشد العذاب وهي
في الحقيقة تحبه أشد الحب ، وقد تخصه بكلمة فيها كثير من الأذى الظاهر ، ولكنها
كلمة فياضة تنطوي على سرب مزقزق من رغبات القرب والوله ، ومشاعر الرحمة
وأخيلة السحر ، وقد تندد بكلمة فيها الكبرياء الجاسية الغليظة، ولكن فاعلم وقتها
أنها تخصك منها بمعنى خفي ما ، فالحب فضاء واسع الأرجاء يجمع علينا الشبهه
والحقيقة ، والفتنة والإيمان، والظاهر والباطن ، والورد والشوك.

يقول الراجعي: ((وقد تعالنتك بأشد البغض ، وتدع قلبك يشبهها لك مراغمة
جافية متعسرة، غليظة الكبد ، ولا من بغضة ولا حفاء ، ولا معاسرة ولا غلظة لا يد
من أنك أدللتها بهذاك، فكل ما تشتمك به إنما تتأود فيه، فكم من عاشقة متكبرة
على من تهواه قصده وتباعده، وهي في خلواتها ساجدة على أقدام خياله تفرغ وجهها
هنا وهنا على هذه القدم وعلى هذه القدم))^(٢٠) ، إن أسرار الحب لا تنتهي

وعجائبه لا تنفذ ، وغرائبه لاتنقضى ، وسمؤه ليس لها حدود ، وفيوضه ليس لها قرار يبدو أننا فتنا عن فك أسرار الحب فما فى قدرتنا سوى التسليم لهذه الأسرار ، وبلى علينا أن نخوض إلى بحوره القصية الفاتنة نبحث عن سر لائه ، وكنه جواهره حيث يحولنا الغرق فيه عن البحث عن سر معرأيه ، هل يعنى هذا أننا نتعلق بأسرار الحب كما يتعلق العابد بأسرار عبادته؟؟ ، وكما يتعلق الطفل بأمه بصورة لا شعورية؟؟ ، أو نتعلق بالحياة رغم كل آلامها وتناقضاتها بصورة سرمدية؟؟ ، نحن نتعلق فى سماوات الحب بسر عفويتنا ، وطرأجة طفولتنا ، وعذوبة أحياتنا الأولى قبل أن تكبر ويكدر ماء عقولنا وأرواحنا غبار الأيام ، وتراب طاحونة الأيام ، يقول صلاح عبد الصبور مخاطبا حبيته:

لا ليس غيرك يا حبيبتي من يعيدنى للفارس القديم
دون ثمن ، دون حساب الريح والخسارة
صافية أراك يا حبيبتي كأنما كبرت خارج الزمن
وحيثما التقينا يا حبيبتي أيقنت أننا مفترقان
وأنتى سوف أظل واقفا بلا مكان
لو لم يعدنى حبك الرقيق للطهارة
فنعرف الحب كغصني شجرة
كنجمتين توأمين
مثل جناحي نورس رقيق
عندئذ لانفترق
يضمنا معا طريق
يضمنا معا طريق

فنحن في الحب نقع في حالة اللاعقل ولكن بالعقل، ونغرق في قارة اللاشعور ولكن بالشعور، ونسلم أنفسنا للفتنة بالإيمان، وللوهم باليقين، وللعقل بالأحلام. وللواقع بالخيال، لقد كان الرافعي أصيلاً عند رأي الحب عودة لطفولتنا الكبيرة الحكيمة، وقد رأى ابن حزم من قبله الحب هو الحياة الطفولية الغضة المتجددة ورأى دانتي الليجيري أيضاً ذات الرؤية في الحب فهو الحياة الطفولية التي لا تكبر أبداً، ورأها فرديريك جوته قوة الطفولة التي تتجدد مثل شمس الصباح في كل وقت وحين، وهو نفس الإحساس الطري الشهى الذي استولى على جماع كيان الشاعر ابن الرومي عندما رأى في وجه حبيبته وحيد في كل ساعة تجديداً، إذ قال:

خالقت فتنة : غناء وحسناً	مالها فيهما جميعاً نديداً
فهي نغمة يميز منها كبيراً	وهي بلوى يشيب منها وليداً
عن يميني وعن شمالي وقدأ مي	وخلفي، فأين عنه أحيداً
سد شيطان حبها كل فج	إن شيطان حبها لمريداً
ليت شعري إذا أدام إليها	كرة الطرف مبدىء ومعيداً
أهي شيء لاتسام العين منه؟	أم لها كل ساعة تجديداً
بل هي العيش لا يزال متى استغ	رض يملئ غرائباً ويفيداً
حسنها في العيون حسن جديد	فلها في القلوب حب جديد
أخذ الله يا وحيد لقلبي منك	ما يأخذ المديل المقيد
ما تزالين نظرة منك موت	لي مميت، ونظرة تخليد
ضافني حبك الغريب فألوى	بالرقاد النسيب فهو طريد
عجبا لي، إن الغريب مقيم	بين جنبى، والنسيب شريد

قد مللنا من ستر شيءٍ مليح نشتهيه، فهل له تجريدُ
هو في القلب وهو أبعد من نج — الثريا فهو القريب البعيد
فوحيد هي ((هي العيش لا يزال متى استعرض أملى على غرائبها متجددة
فالشاعر بعد أن وصف وحيدا أي بعد أن ألم بصورتها الحسية ، خيل إليه أن مع
ذلك كله لم يفقه حقيقتها فأمضى إليه متأملا متفكرا حتى خلص إلى الشبه بينها
وبين الحياة الذي يفوق سره العقل فتماثلت وحيد بالنسبة إليه مع الحياة في نهاية
طوافه وتفكره بسرهما وحقيقتها))^(٢١) . ولقد قال بسكال في رسالته المسماة
" (مقال في انفعالات الحب)) أن الحب هو دائما أبدا وليد صغير لم يعد دور
التكوين)) " وكأننا نمسك ببراءة الروح والجسد والعالم كله في لحظة واحدة ونحن
في حالة الحب التي هي حالة من التموج العاطفي العميق والرقيق والكثيف حيث
يتجلى لنا عبر قوس قزح الوجودي التجدد الطفولي المتموج فلا يقرله قرار من
نرى هذا أيضا لدى أبي نواس في وصفه فتاة فتاة:

وذا تـ خـد مـورد	فتانسة المتجرد
تأمل العين فيها	محاسنا ليس تنفد
الحسن في كل جزء	منها معاد مردد
فبعضه في انتهساء	وبعضه يتجدد

((فليس الجمال على الوجه الصبوح سوى ذلك التجدد المستمر الذي يرينا
محيا المحبوب ، وكأنما هو الطلعة البهية التي تشرق علينا لأول مرة، وكذلك لا قيمة
للنظرة أو الابتسامة إلا إذا بدت في كل مرة جديدة وكأنما هي تحمل في كل آن
معنى، وتبرز في كل مناسبة سحرًا لم يكن في الحساب ، وهكذا الحال بالنسبة

إلى الحب ، فإن الحب الحقيقي يرى في محبوبه كل يوم مخلوقًا جديدًا ، وإن كان هو بعينه ذلك المخلوق الذي أولع بحبه يوماً^(٢٢) ، وهذا التجديد التموجي الأبدي الشهي يظل يلح على قلب المحب، وتظل أنوار المحبوب تشعه في كل اتجاه إلى ما لانهاية، والقلب لا يسعه الدنيا وما فيها عندما يحب، ولذا ترى المحبين الحقيقيين يحبون العزلة والوحدة وكأنهم يريدون الخروج عن حدودهم المحدودة في الدنيا إلى عالم الصمت الذي يفتح عليهم أكوانا أخرى غير منظورة، وفي هذا تناقض عجيب من تناقضات الحب إذ نرى المحبين في زهوة فرحهم بالمحبوب لا تسعهم الفرحة في الدنيا فيريدون أن يمتدوا بفرحتهم إلى أبد الآخرة أيضاً. وهنا يتجلى الحب عن غموض وتناقض آخر أكثر غرابة وتعقيداً من ذي قبل، يتجلى في دخول الموت في الحب ودخول الحب في الموت ، فحين يتسع الحب سعة لا حدود لها في قلب المحب حتى ليخرج عن نطاق مكانه وزمانه وحدود حواسه وقدراته الإنسانية فلا يجد سعادة له غير أبدية الموت ولانهاية الخروج من حدود الجسد والروح والعقل والخلق والواقع والحياة بأسرها، فالموت، وجود مطلق يسع المحب والمحبوب معاً، وربما قال الهعشري في قصيدته " شاطئ الأعراف " شيئاً من هذا في قوله :

أيها الحب أنت للموت موت ذو غلاب على البلي مستخف
أنت صنو الحياة وارثة الموت وظلال من الإله ترف
وعندما يحب الإنسان يحس أنه بدأ يخرج من ضيق الاعتقاد الرتيب
إلى طلاقة الحب الخصب، فيخرج البخيل من البخل إلى الكرم، والعيي من
الصمت إلى الكلام، والخامد من الجمود إلى النشاط، ويخرج القبيح من التبذل

للجمال، والشيخ من الشيب إلى الشباب، فالحب مظاهره وجودية ثورية ضد السائد والمعتاد في كل شيء، إنه الشجاعة المفرطة الجسارة ضد تسييس الوجود، وتصنيف النفوس، وقد مر بهذه المعاناة العذبة الجميلة جميع الشعراء على اختلاف توجهاتهم خاصة العذريين والصوفيين، حيث الفناء في المحبوب يمثل قمة الحب، والفناء هنا قوة الإنشغال بذات المحبوب لا الاضمحلال فيه، أو قل الخروج من ضيق العالم إلى أبدية الروح حيث السمو والخلود، وانحسار ظلال الجهول والانسباب مع اللحن الكلي السابح في لجة الموجودات والأشياء والأحياء وهي تستحم في نهر البهاء المطلق.

وبهذه المثابة فإن الحب يحررنا من ضيق حدود أجسادنا وعقولنا وأفكارنا العامة السائدة، فهو ينقلنا من حدود البصر إلى لانهائية البصيرة، ومن ضيق الزمان إلى سعة الأبدية، ومن حدود العقل إلى رحابة الجسارة، إنه خروج على الحدود بامتياز، وتخليص للعقل والقلب معا من قيود ذلك التحميم [الصارم] الضيق الذي يخيل إلى أكثر الناس أن جميع ما نحسه من الأشياء، ونراه من الموجودات مصبوبة على قالب واحد رتيب لا يتغير ولا يتبدل، لكن الحب يرينا كل شيء في حيهيته وجدته الحبة التي لاتنتهي، فالحب من روح الرحمن مقتبس، ونحن لا نقبل بالطبع تحليلات فرويد المادية التي حاول أن يفض بها أسرار الحب، فالحب في نظرنا أعلى وأدق وأجمل وأوسع من ضيق الوهدة المادية الفجة التي أنزله إليها فرويد وسائر المحللون الماديون أو قل أصحاب النظريات المغرمون بحبس الوجود الطليق الحي في زجاجات أفكارهم، واعتبار ظاهرة الحب مجرد حضيض جنسي مادي هو تصور غير صحيح على المستوى الحياتي والوجودي والعلمي أيضا، فقد كان يرى فرويد أن

الأقدمين كانوا يهتمون بالغريزة الجنسية ذاتها ، لكننا المحدثين يهتمون بموضوعها فقط ، فقد كان الأقدمون يعظمون الدور الجنسي ، ويعنونه سبب الارتواء والسعادة في الحب .

بينما نحن المحدثين نختصر النشاط الجنسي ذاته ، وننظر إليه بعين الريبة والانحطاط ، ورضيف فرويد بأن تأملاته عن الحب قادتته إلى أن الحب كان يفعل فعله منذ بدء الحياة غريزة للحياة في مقابل غريزة الموت منذ أن تفتحت الحياة في المادة الجامدة ، ولقد فسّر فرويد جميع صور الحب في الوجود بين الرجل والمرأة والأب وابنه ، وبين الناس والمؤسسات التي يعملون فيها من واقع الدافع الجنسي المادي الفج ، وبالطبع فإن إرجاع الحياة الروحية العاقلة او حتى الحياة المادية المعقدة للوجود البشري الخلاق إلى أسباب مادية أسطورية صلبة مثلما فعل فرويد وغيره من العلماء على شتى صنوفهم المعرفية لا يفسر لنا شيئاً عن الحب بقدر ما يحده من جذوره، ولقد أبان علماء النفس الإنسانيين الجدد من أمثال ماسلو وروجرز هورني وسوليفان وإريك فروم وغيرهم بأن الحياة الروحية والقيمة والأخلاقية للإنسان تختلف اختلافاً جذرياً عن الأسباب المادية التي تقود إليها فإذا كانت المادة موجودة منذ البداية غير أنها لا تفسر لنا بوجه من الوجوه حركة الروح، أو نشاط العقل ، أو تعقيد الشعور، أو الغائية من الحياة والوجود، فبدايةً من معجزة الإدراك الحسي التي نراها أمامنا كل يوم والتي تبدأ من التقاط الأشياء المادية من حولنا ، غير أن هذا الإدراك المادي الحسي ينتهي بنا إلى أشياء عقلية وروحية وخيالية فوق حسية وفوق مادية، تتجاوز الإدراك الحسي نفسه، وبناء عليه أدخل علماء النفس الجدد الدافع الإنساني والروحي مكوناً أساسياً من مكونات

الوجود الإنساني والطبيعي والعلمي والفلسفي، كما أدخلوا مبحث القيم والحرية مبحثاً تأسيسياً في بنية الأشياء والأحياء والموجودات كلها، ولا يمكن بحال من الأحوال أن ينحط الإنسان إلى مدارك المادة فتكون قادرة وحدها على احتوائه وتفسيره وتحديد مسارات وجوده، وقد استطاع إريك فروم عالم النفس الشهير أن يربط بين الأفكار العلمية في علم النفس المادي وبين الأيديولوجية الرأسمالية التي ترجع كل شيء إلى المادة والتي تنظر إلى الجسد البشري أو إلى الإنسان برمته بوصفه تركة مادية رأسمالية تباع وتشتري في الأسواق الرأسمالية، وليس روحاً نشطة فعالة، وعقلاً متوتراً مريباً قادراً على تحديد هدفه وتأمين وجوده، والسمو إلى مثله الأعلى الجمالي والمعرفي والحضاري والعاطفي أيضاً، لقد اختزل فرويد الحب والحياة العقلية برمتها إلى ((فلسفة وجودية مادية بائسة)) إن صح التعبير كما أن عاطفة الحب عنده غير عقلانية لكونها تعبيراً عن التدمير المتعلق بالإلحاح الفسيولوجي. لكن فلسفة الوجود والحب لا يفسران لنا شيئاً من حقيقة الوجود أو حقيقة الحب أو حتى حقيقة العالم المادي الذي يتم الحب في رحابه!! ويظل الحب متعالياً رفاقاً في سماواته الشجية بعيداً عن سحون فرويد وغيره من العلماء.

فإذا اتجهنا إلى إريك فروم عالم النفس الكبير وجدناه يفسر لنا كنه الحب بظاهرتي الاتصال والانفصال وعلاقتهما بقضية الحرية. فإن الإنسان كان يعيش في الماضي وثيق الصلة مع الطبيعة، وكان يمتلك كامل أشواقه وحرته، لكنه حين ابتعد حديثاً عن الطبيعة انفصل عن قواه الداخلية والخارجية معاً، ونتيجة لهذا الانفصال والانفصام الروحي والوجودي تتولد لدى الإنسان رغبة روحية جامحة لاستعادة هذا الاتصال القديم وهكذا فإن سر الحب يكمن في الشوق إلى الاتصال

والرغبة الحميمة في خلق علاقة روحية وعقلية تكون قادرة على تحقيق أشواق الإنسان وحرته وطلاقته وكافة صور قدراته وممكناته، لكن الرجوع إلى الطبيعة الأولى المتصلة لا المنفصلة لم يحدد إريك فروم لنا طبيعتها هي نفسها!! ، لقد أنزل إريك فروم المثاليات المجردة المتعالية لدى أفلاطون والمتمثلة في شوق المحبين إلى التعالي إليها والتحقق بها والاتصال بعوالمنا الروحية الأولى التي انفصلنا عنها انزلها فروم من علياء عالم المثل ، إلى وطياء عالم المجتمع والطبيعة لكنه لم يحدد لنا معيار هذا المجتمع ، والحقيقة الأولى لهذه الطبيعة ، فليس اجتهاد إريك فروم سوى فرض إنساني أولي أراد أن يحقق به حقيقة قبلية بدئية حتى يبني عليها تصوراته العلمية والنفسية والوجودية لحقيقة الحب ، لكن تظل أمام إريك فروم معضلة وجودية عاطفية كبرى وهي تتمثل فيما نرى في هذا السؤال : لماذا يستجيب إنسان ما لحاجات إنسان ما آخر دون غيره من البشر الموجودين معنا؟! والذين قد يمتلكون نفس الحاجات؟! لقد حدد فروم أربع حاجات أو خصائص جوهرية لتحقيق سر الحب ، أو ما أطلق عليه " الحب النثمر " وهي العناية أو الرعاية (" Gare " والمسؤولية " Responsibility " ، والاحترام " Respect " والمعرفة " Knowledge " فإذا توفرت هذه الأشياء الأربعة بين شخصين اتقدت شرارة الحب بينهما، وحدثت الجاذبية الروحية العارمة بين المحب والمحبوب ، لكن الواقع الوجودي لظاهرة الحب لا تفسره هذه المحددات الأربع أو حتى صور الحب الإيجابي والسلبي التي حددها إريك فروم ، فقد يحقق لنا بعض الناس هذه الخصائص ثم نميل روحيا إلى شخص آخر غيره، وهنا يظل الحب سرًا مغلقًا ، وأفقًا غامضًا مشعًا معًا فدائمًا يفاجئنا الحب مثل الوجود بأسراره العاتيات، فقد يكون الدافع الأساسي

للحب هو الرغبة الصافية البريئة من أي قسر أو هدف أو منفعة حتى لو كانت المحددات الأربعة التي قال بها إريك فروم .

ولقد رأى عالم النفس روجرز بعد فروم أن سر الحب يكمن في أن تكون مفهوما بعمق من الطرف الآخر، ومقبولا بعمق منه أيضا، وهذا يتوجب شرط الاحترام العفوي غير المشروط، والذي يجعل الإنسان قادراً على أن يعيش حالة تبادل المشاعر بينه وبين المحبوب بعيدا عن حالات الإسقاط النفسي الخيالي وحالات ضعف الذات أمام ذات أخرى تتسلط عليها وتتملكها، وتقرر هورني مع روجرز أن سر الحب هو أن تمتلك القدرة على أن تعطي من نفسك تلقائياً للناس بدلا من الحصول على كل شيء لنفسك بطريقة أنانية، لكن ما يحدث بالفعل في ممارسة الحب يخالف ما ذهبنا إليه هورني أيضا، فالحب قد يكون أنانيا وقد يكون تنازلا وقد يكون خيالا وواقعا، ووهما وحقيقة ورغبة وسموا معا، فماذا تفعل هورني أمام أسرار هذا العالم الخفي العتيد عالم الحب!! لكن الفيلسوف الظواهري ماكس شيللر، يرى أن سر الحب لا يكمن في الانفعال أو الرغبة بل هو معرفة حدسية مباشرة يخترق بها المحب كيان محبوبه مباشرة، فالحب هو القدرة على إدراك ماهية الشخصية وقيمها الرئيسية في نظرة حدسية شاملة كخطف البرق الساطع، وومض الحلم البارق، على أن يكون إدراك قيمة هذا الشخص غير خاضع لحسابات من أي نوع، أو مقارنات من أي شكل، لأن الحب لا يعبأ بالحسابات ولا بالمقارنات بل يتعدى ذلك إلى أفق القيمة الأساسية للشخص بحيث يكون قادراً على إنماء هذه القيمة، والمشاركة الفعالة في بعث الحياة فيها وإيقاظ إمكاناتها ومواهبها وصفاتها الأصيلة الكامنة فيها .

ومن واقع العرض السابق لبعض تصورات علماء النفس عن سر الحب وطبيعته وأهدافه ، نجد أنهم قد واجهوا صعوبات جمة في وصف الحب أو تعريفه أو حتى مجرد تحديده، ولقد تغلت منهم الحب دائما مثل الطير الحرون الأبي المحلق فى أعماق الفضاء بعيدا عن طاقة البشر فى الرؤية والتفسير!! والعلماء السابقون يحاولون جميعا أن يقبضوا على الشعاع الطليق داخل حجرات العقل الضيقة أو يفسروا سر الاخضرار الفاشي في أشكال الأشجار ، بالعناصر المادية الأولية التي تتكون منها هذه الأشجار . فقد حاولوا القبض على زرقة السماء اللامتناهية داخل زجاجات المختبرات العلمية البائسة، وربما بدأ الحب مثل خمر إلهية غير آسنة صبت في جام الوجود فأسكرت جميع البشر، دون أن يدركوا سر السكر الجميل فيها ، وبدون أن يقفوا على سر تكزيئها وسحرها ونشوتها، فهي مثل قول الشاعر العاسي أبي العباسي الناشئ في إحدى حمرياته :

ومدامة يخفي النهار لنورها	وتدل أكناف الرجي لضيائها
صبت فأحرق نورها بزجاجها	فكأنا جعلت إناء إنائها
وتكاد إن مزجت لدقة لونها	تمتاز عند مزاجها من مائها
لا شئ أعجب من تولد برئها	من سقمها ، ودوائها من دائها

نعم فوجه العجب في سر الحب أن برءه هو سقمه ، وسقمه هو برؤه ، ودواؤه هو الداء ، ودواؤه هو الداء ، ولا يشفيه من عذاب الحب إلا المزيد من الحب ولا يقربنا من معرفة سر الحب سوى الخشوع أمام أسرار الحب ، يقول قيس بن ذريح متحسنا أمام محراب لبي :

أعالج نفسي من بقايا حشاشته
فإن ذكرت لنبي هشتت لذكرها
أجيب بلبني من دعائي تجلدا
تعيد إلي روعي الحياة وإنني
ألا لبت أياما مضين تعود
كأنني من لبني سليم مسهد
فلا اليأس يسليني ولا القرب ناعفي
رمتي لببتي في الفؤاد يسهمها
سلا كل ذي شجو علمت مكانه
وقائلة قد مات أو هو ميت

على رمق والعائدات تعود
كما هش للثدي الدرور وليد
وبي زخرات تجلي وتعود
بنفسي لو عابنتي لأجود
فإن عدن يوما إنني لسعيد
يظل على أيدي الرجال يميد
ولبني منوع ما تكاد تجود
وسهم لببني للفؤاد حبود
وقلبي للنبي ما حسيت ودود
وللنفس مني أن تفيض رصيد

وهذا التوله والتدله والتأوه في محراب الحب هو آخر ما في طاقة الشعر والشاعر معرفته، فالحب خارج احتمال الوعي، وخارج الإمكان البشري في المعرفة والتصور، ولقد كان ابن حزم الأندلسي بصيراً واعياً بطبيعة الحب والتي رآها تقرب من طبيعة الخيال . فقد أخبرنا عن حب تم بمحض الخيال ومجرد الوصف عن بعد ولقد تعجب ابن حزم من هذا ولكنه لم ينكره ، ومن هنا تأتي أصالة الوعي بالوجود والحب عند ابن حزم ، فقد تعجب ممن يحب " ((من لم يره قط ، ولا خلق ولا هو في الدنيا)) " ثم يفسر ذلك بحدسه الحسي البصير بقوله " ((إن الذي أفرغ ذهنه في هوى من لم يره ، لا يبد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعينا يقيمها نصب ضميره، ولا يتمثل في هاجسة غيرها ، قد مال بوهمه نحوها)) (٢٣) .

ويربط الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه عن " مشكلة الحب " بين أفكار ابن حزم في هذا الصدد وأفكار الكاتب الفرنسي الكبير" (ستندال)، الذي سيقول بعده بفكرة " (التبلور)" فيروي لنا كيف أن خيال المحب يخلع على المحبوب كل ما يهواه هو من ضروب الكمال ، وكيف أن أوهام الحب هي التي تجئ فتضفي على شخصية المحبوب من المزايا ما يجعل منها جوهرة ثمينة نادرة)^(٢٤) ، وفكرة التبلور عند ستندال تقترب من العوالم الروحية والعقلية الكامنة في اللاشعور الروحي للمحب هذا اللاشعور الغاص بآلاف الصور والروابط الجميلة الماضية والحاضرة والمتخيلة والتي تجسد وتكون لديه مثلا أعلى للمحبوب عند المحب، وكأن المحبوب يجمع للمحب عبر حياته كلها كل ما انفعَل به، وكل ما تأثر به فيما مضى من حنان، أو شفقة أب ، أو عطف أخت ، ومن جمال وجه ، أولون شعر ، أو طابع حسن أو نظرة ساحرة ، أو نغمة صوت . وغير ذلك مما يستقر في عقله الباطن ، فإذا ما صادف شيئا من ذلك في شخص انصب في نفسه هذا التيار العجيب من الحب أو قل ينفذ هذا التيار من عقله الباطن متسللا إلى عقله الظاهر ، فتتسلط علي هذا الشخص ، أو قل تسلط عليه هو ذكرياته وقوى خياله " ((فإذا هو يستحيل في نظره إلى كائن شعري فائن أخاذ ، وهذا هو سر الحب ... ورباطته السحرية التي توثق الأواصر بين المحب ومحبوبة ، فإذا هو تكفيه منه النظرة والإيماء العابرة ، أما الوصل فهو كمال الأمنية ومنتهى الأمل والفرح الذي لا شائبة معه ، والصفاء الذي لا كدر فيه ، وكل فراق وهجر لا يزد المحب إلا ولوعا بمحبوبة ، وكذلك كل عدل ولوم وكم شك المحبون من العذال والرقباء والوشاة ، وإنهم ليضنون ويسقمون ويطول بهم

السهر والسهاد ويتعذبون عذاباً ممضاً ، وهم منتشون لا يفيقون سعادة بكل ما
يألون) (٢٥).

ولعل فكرة التعميم في الحب التي يقصد إليها شوقي ضيف تتصل اتصالاً
وثيقاً بفكرة التبلور السابقة عند ستندال وبفكرة التخيل عند ابن حزم وبفكرة
النقص الكامنة في وجودنا البشري ، وأنا لا أقصد النقص المرضي كمصطلح من
مصطلحات علم النفس ، بل أقصد فكرة التناهي والمحدودية التي تتحكم في وجودنا
البشري بصورة فطرية جبرية سواء كنا بشراً أصحاء أو مرضي ، فكلنا يحكم فيها
التناهي وقصر العمر ومحدودية الإدراك ولأننا " (بطبيعتنا ناقصون ومتناهون
فإننا نسطنح لأنفسنا دائماً - إن من حيث ندري أو من حيث لا ندري - صورة
مجردة لما سيكون من شأنه أن يتمنا أو يكملنا . وهذه الصورة المثالية المرجوة
لموجد آخر سيكون من شأنه أن يحقق لي الاكتمال هي بمثابة ينبوع الأصلي
الذي لا بد من أن تنبثق منه صورة " الكائن المحبوب " ، ومعنى هذا أن شعورنا
بذواتنا يقترن بشعور آخر يدور حول ما نرغب فيه لكي نحقق ذواتنا من جهة ، وما
نخشى ألا نستطيع بلوغه مطلقاً من جهة أخرى ، ولا شك أن مثل هذا الشعور إنما
يعبر عن نقص مزوج ، لأننا نشعر بالحاجة إلى موضوع يكون من شأنه أن يكملنا
وحقق ترقيناً ، كما تكمل الزهرة البرعم الصغير أو كما تجئ الثمرة فتكمل نضج
الزهرة ولولا هذا الشعور المزوج بالنقص لما نشأ لدينا ذلك الحنين الغامض إلى
موجود آخر يجئ ليحقق آمالنا في الاكتمال ، وهكذا تجئ تجربة " التلاقي " فتحرر
ما في نفوسنا من إحساس بالقلق ، وتتيح الفرصة أمام الصورة المثالية الكامنة
في أذهاننا لأن نتحقق ويتم إسقاطها فوق شاشة الواقع) (٢٦).

إن الغموض والسر الكامنين في فكرة التبلور عند سنندال ، أو فكرة التخييل عند ابن حزم، أو فكرة النقص والتناهي والفناء عند زكريا إبراهيم أو فكرة التعميم النفسي والعقلي كما ذكرها شوقي ضيف وهو ما يعرف في علم النفس ((بالثبوت في الحب))، فإن كل هذه التصورات تقترب أيضا من الغموض والسر الكامنين في فكرة الحنين والتذكر التي ذكرها إخوان الصفا وتغنى بها الشعراء والفلاسفة ووقفوا بحالها مذهولين لا يدركون من سرها شيئا ذا بال، وملخص هذه الفكرة كما ذكرها الوشاء في الموشى " ((أن من عشق يوما شخصا من الأشخاص ثم تسلى عنه أو فقدته ، أو تغير عليه ، ثم إنه وجده من بعد وقد تغير عما كان عليه وعهده من الحسن والجمال وتلك الزينة والمحاسن التي رآها على ظاهر جسمه ، فإنه متى رجع عند ذلك فنظر في تلك الرسوم والصور التي هي باقية في نفسه منذ العهد القديم وجدها بحالها تلك ولم تتغير ، ولم تتبدل ، ورآها برمتها ، فتشاهد النفس في ذاتها حينئذ من تلك المحاسن والصور والرسوم والأصباغ ما كانت من قبل تراها على غير تغير فعند ذلك تبين له وعلم أن المعشوق والمحبيب بالحقيقة إنما هو تلك الرسوم والصور ، التي كان يراها على ذلك الشخص ، وهو اليوم يراها في نفسه منقوشة مرسومة في جوهره مصوره في ذاته ، باقية لم تتغير فعهما تغير المحبوب فصورته في عين محبه لا تتغير ، ألم يقل محبون ليلي من قبل في محبته :

تعلقت ليلي وهي ذات ذؤابة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

وهذا يعني أن للتناهي الذي يعترينا والنقص الذي يتلبسنا وللخيال والشوق والرغبة المشتهاة في المحبوب سطوة عاتية في تشكيل صورة المحبوب ، فنحن نحب ما نرغب فيه ، وما نحلم به وما نتخيله ونتمناه أيضا ، فالمحبوب هو المثال وهو الأشواق المشتهاة ، وهو الأحلام والهواجس وروعة الخواطر ، وفيض الأمنيات إنه مزيج رائع معقد من وعينا ولا وعينا، حاضرنا ماضينا ومستقبلنا على السواء فنحن في الواقع لا نحب في محبوبنا صورة الواقعية فقط بل وصورته الخيالية الكامنة في أرواحنا وعقولنا وأشواقنا أيضا، وهذا التصور للحب ربما عرفه علماء النفس فيما أطلقوا عليه مصطلح " التثبيت " (في الحب) ، أو مصطلح (التعميم) ولكن هناك جوانب عميقة وأصيلة في تصور ابن حزم للحب سبق بها فيما نرى تصورات علم النفس المعاصر. ونستطيع أن نرجعها هنا إلى قيمة الخيال ودوره في ظاهرة الحب ، وبالطبع فإن الخيال هنا غير الوهم فخيال الحب غير وهم الحب يقول زكريا إبراهيم : ((فربما يقر آخرون بأن الحب يحدث في لحظة انحلال عقلي أو هبوط قيمي ، أو ضياع نفسي فيصاب القلب بمرض عدم المناعة فيغزوه قلب آخر لكن هذا الكلام يصور الحالات المرضية أو الوهمية في الحب ، ولا يصور الحالات الأصيلة العفوية فيه ، ولا نستطيع أن نطابق أيضا بين وهمية الحب وخيالية الحب فقد ربط مارسيل بروسست الروائي المعروف بين عدم معقولية الحب ووهميته وسبب حدوثه فأرجعه إلى محض الصدف وربما لو لم نقابل هذه المرأة في ذلك اليوم وحدثت بعض الأعمال والشواغل عن وجودنا معها في نفس المكان في ذلك اليوم ربما لو حدث هذا لما تم حياها ولما حدث كل هذا القلق والألم والنشوة والعذاب معا لكننا لا نتصور أن الحب يحدث بسبب الوهم الخالص " فحتى لو صح أن التبادل

في الحب هو مجرد وهم مزدوج ، فإن هذا لن يسمح لنا بأن نقرر أن توافق وهمين إنما هو نفسه مجرد وهم !! وآية ذلك أننا نلمح بالفعل هذا التوافق وأنه كثيراً ما يكون شرة لقبول مزدوج ، فضلاً عن أنه يمثل في كل علاقة عاطفية – مهما كان من تفاهتها – مثبتاً من الحقيقة^(٢٧).

وهذا يعني أن الوهم في الحب كما وهمه بعض الفلاسفة والروائيون لا يفسر لنا سر الحب، بل هو تصور غير دقيق على المستوى العلمي والوجودي الفعلي، لأن الوهم لا يعكس غير جزء من الرؤية الصادقة لجوهر المحبوب ولربما كان مصطلح الخيال أدق وأنفذ وأقرب وأشمل في الوقوف على عتمة سر الحب، وهو أقرب التصورت دقة إلى ما نسكن من أشواقنا ورحيقنا الخاص على من نحب ونرجوه ونصو إليه لأنه الخيال مرتبط بموضوعه ينفذ فيه ويتسامى عليه في آن، ولقد كان ابن حزم الأندلسي أقرب إلى حقيقة الحب من غيره؛ من المفكرين عندما أقر بتأثير خيالنا علي حينا ، ولكن لنا أن نتساءل بدورنا لماذا لم ينشط خيالنا في استشارة مشاعرنا إلا صوب هذه المرأة دون سواها؟ بالطبع نحن نقف عاجزين أمام هذا السؤال، وربما دققنا على باب مجهولات الحب فلم تفتح لنا بصيصاً من نور، وبقينا في توجعنا وحيرتنا نعزف أرق الأحان على باب السر، وروعة المجهول في الحب، وربما تتجاوز فكرة التثبيت والعتيم في الحب حدود الدنيا فتتجاوزها إلى الموت أيضاً، وتبقي صورة الحبيب ثابتة عميقة محفورة في طوايانا وحنايانا تتخلل أجسادنا وخيالنا وأرواحنا وحياتنا الباطنة كلها ، حتى لو تغير هذا المحبوب لا تتغير صورته، بل لو مات وانتهى من الدنيا يظل مثلاً أعلى نكدح إليه ونعشقه

وتتملى حياتنا في صورته المحفورة في ذكرياتنا وقلوبنا وعقولنا وخيالنا الأولي
الطرية الشهية.

ومما يقوله ابن حزم الأندلسي في هذا الباب قوله: ((وأعرف من كان أول
علاقته بجارية مائلة إلى القصر، فما أحب طويلة بعد هذا، وأعرف أيضا من هوى
جارية في فمها فوه لطيف، فلقد كان يتقذذ كل فم صغير ويذمه، ويكرهه الكراهة
الصحيحة ... وعني أخبرك أنني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر فما
استحسننت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو كانت على صورة الحسن نفسه، وإني
لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، لا تواتيني نفسي على سواه، ولا تحب
غيره البتة^(٢٨)، وهذا يؤكد أيضا أن الحب سر غامض قصي مثله مثل سر الغروب
المترامي خلف المروج الذهبية يظل يرسم في جوانب الأفق البعيد صوراً للبهاء الأبدي
العفوي غير المسوس من قبل، وغير قابل للمعرفة، أو الإمساك به في أقاصيه البهية
اللانهاية، وقد كان ابن حزم نفسه وجميع من كتبوا عن الحب يعتبرون الهوى
والعشق داء عيأ ماله من دواء، وسطوة عاتية لا مفر منها، وسيف أمر قاهر يسطله
علينا القدر فنذل تحت مشيئته خاضعين راضين مسرورين. ونحن نوافق ابن حزم
على قوله أيضا يقول ابن حزم: ((اعلم أعزك الله أن للحب حكما على النفوس
ماضيا، وسلطانا قاضيا، وأمرا لا يخالف، وحدا لا يعصى، وملاكا لا يتعدى، وطاعة
لا تصرف، ونفاذا لا يرد، وهو - الحب - يحل المبرم، ويحل الجاهد، وحل النابت
ويتخلل الشغاف، وحل الممنوع^(٢٩).

ولعمق إيمان ابن حزم بما يقول ويعرف وما يستقيه من خبرته اليومية
المباشرة نراه يكرر نفس تجربة الوقوف على أسرار الحب بعد أن بلغ السبعين من

عمره. وصار شيخاً وقوراً طاعناً في السن، فراه يكتب في كتابه: ((الأخلاق والسير
 في مداواة النفوس)) (أخبرني بعض من صحبناه في الدهر عن نفسه أنه ما عرف
 الغيرة قط حتى ابتلى بالحبّة فغار وكان هذا المخبر فاسد الطبع خبيث التركيب
 إلا أنه كان من أهل الفهم والجود)^(٢٠). وهذا يؤكد على عكس ما يحلل علماء
 النفس. وأصحاب الطب النفسي على أن الحب لا يخضع لمقاييسهم العقلية
 خضوعاً تاماً، ولا يتسق وأفكارهم الأخلاقية والنفسية والعلمية والثقافية كل
 الاتساق. فالحب يتم داخل حدود الدنيا لكنه يعلو على الدنيا، ويتم بالعقل ولكنه
 فوق العقل. وتكون حدوده أعضاء الجسد ومكان الروح، لكنه يتجاوزهما معا
 فينداح عبر آفاق الشوق والسمو والنزوع إلى المطلق خارج حدود الزمان والمكان
 والأعراف والتقاليد والأخلاق، خارج جسد الحنّين وجسد الدنيا كلياً. ومن هذا
 المنطلق فنحن نعد الحب أخلاق الأخلاق، وفضيلة الفضائل، وقيمة القيم ويكاد
 يكون وجوداً روحياً إنسانياً زاهياً يتخلق ويتألق ويحلق داخل وجودنا الإنساني
 نفسه. لكنه ينزع به إلى آفاق أبعد منه، فالحب منظومة قيمية كبرى مثله مثل
 مثل الإيمان وكل صنوف العبادات التي تخرجنا من حدود ذواتنا الضيقة. وانعزلنا
 الوجودي الموحش، وظلامنا الإنساني الخاص إلى عالم فوق حدود ذواتنا لنصير أكبر
 من نفوسنا وعقولنا وأرواحنا وأفكارنا وخيالاتنا في ذات الوقت الذي لانفقد فيه
 ذواتنا وأجسادنا وأفكارنا، فالحب يذيقنا الرحيق الميتافيزيقي السامي ليس على
 مستوى استغراق حدودنا في حدود قلب آخر لنكون أكبر من أنفسنا!! بل هو يدفع
 بنا أيضاً إلى نقل كل عالمنا الدنيوي إلى عوالم ما وراء الدنيا والعقل والثقافة
 لنجرب رحيقاً ميتافيزيقياً وجودياً آخر يكون وراء عالمنا الظاهري الفاني والشئ

المحير حقاً هو من مستغلقات الحب وأسراره الغامضات أن شوقنا إلى الخروج عن حدود أنفسنا في تجربة الحب يزداد ظمأ كلما زاد ارتواء الحب من ماء المحبوب يقول ابن حزم الأندلسي : " ((ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى، فما وجدتهني إلاً مستزبداً، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسأمة ... ولقد ضمنى مجلس مع بعض من كنت أحب، فلم أجل خاطري في فن من فنون الوصل إلاً وجدته مقصراً عن مرادي، وغير شاف وجدي ، ولا قاض أقل لبانة من لباناتي ، ورجوتني كلما ازددت دنوا ازددت ولوعاً، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي) (٣١).

وجب علينا هنا أن نفرق بدقة بين ارتواء مرضي لا ينتهي ظمؤه، بل يزداد ظمؤه كلما تمكن من وصال الطرف الآخر، وبين ارتواء صحي عذب جميل مطمئن يقوم على الإيثار والبذل وحب العطاء للطرف الآخر لذات العطاء والمودة وليس لجبر نقص ، أو سد خلل نفسي لا ينتهي اختلاله، فهناك حالات صحية للارتواء وحالات مرضية من الاستغراق والذوبان وقد فرّق علماء النفس مثل هورني وإريك فروم بين العلاقة العاطفية الصحية القائمة على محض العطاء والإيثار والتضحية في حرية تلقائية للمحبيب، والعلاقة العاطفية المرضية القائمة على الأنانية المنطوية على ذاتها والمستغرقة في لذتها، المفترسة للذات الأخرى ، النهمية إلى إفناء الآخر من أجل الأنا الذاتي الأناني، حيث يتجلى الطرف الآخر في الحب بوصفه موضوعاً للاستهلاك، وشيئاً مستخدماً للتلاعب والإشباع والسيطرة والتملك، ووليمة شبيهة منذورة للنهم والامتصاص والاستغراق والذوبان والانتهاك والتصفية النفسية والوجودية معاً ، نجد كل هذا في العلاقات العاطفية المرضية مثل: المازوشية

والسادية والإسقاطية التي تتم بين المحبين الزائفين أو المرضى وهي صور تتكرر كثيراً في حياتنا اليومية بين الأزواج والمحبين، والتي يحاول فيها المحب الزائف أن يتخلص من مشاعر العزلة الخائفة التي تطبق على جماع كيانه عن طريق جعل نفسه جزءاً من شخص آخر يوجهه ويقوده وحديه ، أي أنه يقدم نفسه ملكاً لا حياة لنفس أخرى زائفة تتقبل هذا العرض الوجداني الزائف كما يحدث مثلاً في العلاقة العاطفية السادية التي يتحول فيها الشخص إلي (الشئ - الموضوع) ويحاول من خلال هذا التحول التخلص من عزلته الجحيمية بأن يقدم نفسه كاملة لشخص آخر يسيطر عليه ، ويتلاعب به ، ويتحكم فيه ويكدر موضوعاً لإثبات نقصه وسد خلله ، وإنهاء جوعه المرضي المقيت ، وكلتا العلاقتين المازوشية والسادية لا تطبقان الحياة والوجود بدون فريسة تستنهب كيانها ، وتصفى وجودها وتستنضب ماء حياتها، وبالطبع فإن كل هذه الصور من صور التواصل المريض تعكس حياً مرضياً أنانياً منطوياً على نواقصه ، مستغرقاً في باطله وضباعه ، حيث لا تتحرر روح المحب ولا المحبوب بل تستعيد وتنتهك لكن الحب الحقيقي فيه وصال من نوع آخر فففيه ((خصوبة تتجلى بوضوح في كونه يغير من نفوس أولئك الذين يحبون ، وكأن الواحد منهم يعيد خلق الآخر أو كأن الاثنين يولدان من جديد معاً ، ولعل هذا هو السر فيما نلاحظه عادة من أن للحب دائماً صبغة خالقة أو طابقا إبداعياً ، وكأن الإنسان لا يستطيع أن يحب دون أن " يخلق " شيئاً خارج ذاته !!) (٢٢) .

وكل هذه الصور المرضية من العلاقات العاطفية تختلف اختلافاً جذرياً عن علاقة الحب الحرة الخلاقة التلقائية الأصيلة، وهنا ما عبر عنه الفيلسوف الفرنسي

المعاصر (لويس لافل) حينما كتب يقول ((إن الحب يفترض الثنائية Dualite باعتبارها شرطاً أساسياً لإمكان قيامه ... ففي الحب إذن علاقة بين حدين لا يتمايز الواحد منهما عن الآخر . إلا لكي يساند أحدهما الآخر... وأنا حين أحب فإنني أتصور الآخر باعتبار؛ مختلفا عني ، ومن ثم فإنني أريده من حيث هو ذات أخرى ، لا من حيث هو ذات أمتلكها ، أو ذات موجودة بالقياس إلى) (٢٣).

وفي هذه العلاقة الحياة النابضة الشهية لا يتجلى المحبوب بوصفه موضوعا شيئاً مادياً مغلقاً ، بل بوصفه روحاً إنسانية رفاة تجمعها ((علاقة حية توجد بين الأنا والأنت ، وحينما تتسع دائرة هذه العلاقة بحيث يستحيل الحب إلى إشعاع كوني ، فهناك يرى المحب جميع الناس أختيارا كانوا أم أشرارا ، جميلين كانوا أن دميمين ، موجودات حقيقية ، أو " نوات " بمعنى الكلمة أو شخصيات حية يخاطبها بلغة ال " أنت " وربما كانت القيمة الأخلاقية الكبرى للحب هي أنه يعلمنا ألا نعامل الآخرين معاملة الأشياء أو الموضوعات أو الوسائط ، بل معاملة الأشخاص أو الذوات أو الغايات) (٢٤).

وهذه السعة الروحية الفياضة التي يدرها لبن الحب الصافي هي التي تمكننا بصورة خلاقة من اكتشاف الجوهر الباطني الصادق لنا وللآخرين ، بل يتعدى الأمر ذلك إلى التنبؤ بهذا الجوهر ، وتوطئ كل الممكنات والأسباب لإيقاظ مواهب الآخرين من سباتها واستنهاض الأصالة الغائبة الكامنة في طواياهم الروحية والعقلية والخيالية ، ولعل هذا هو الذي دفع بعباس محمود العقاد إلى اكتشاف الرجل المحب الكامن في الهيئة الخارجية للرجل الشرير ، أو الذي ذاعت سمعته بالشرب بين الناس على سبيل العجلة وليس على سبيل التأني ، يقول العقاد :

((إننا لا نستطيع أن نعرف معرفة صحيحة متكاملة إلا من خلال الحب، فالفهم البصير العميق حاسة أخلاقية قبل أن يكون حاسة علمية وهو يتفجر من ينبوع الحب وهذا الإحساس العميق بالأواصر الروحية الرابطة بين جميع القلوب هي التي مكنت أيضا الشاعر عبد الرحمن شكري أن يرى في طويا المجرم رجلاً صالحاً ، ولعل هذا يفسر لنا من بعض الوجوه ، كيف يقف العقل الإنساني عاجزاً أمام تفسير ظاهرة الحب تفسيراً معقولاً ، أو حتى قريباً من المعقول ، ولأمر ما كان قران الحب بالجنون هو السائد بين جميع قصص الحب والعشق شرقاً وغرباً، وليس الجنون هنا مرادفاً للعتة والسفه والانحلال العقلي والخلقي ، بل مرادفاً لعوالم ما بعد العقل وفوق المنطق، والخروج على قواعد العرف العام في الفهم والتصرف والممارسة بل نحن نرى ان أفضل حالات الوعي والفهم والتصرف تكون دائماً فوق حدود القواعد المرعية، والسلوكيات المتبعة في الإدراك. أي أن أدكى وأعلى ألوان الوعي هو ذكاء الوجدان الكلي البصير، لا ذكاء العقل المنطقي المحدود، بل نرى ذلك أيضا في النظريات العلمية التجريبية المعاصرة التي نولى منطق الحدوس والفروض قيمة معرفية كبرى في التوصل لتصورات علمية تجريبية جديدة، يقول رشدي السي في كتاب ((إرنست دومنييه (فن التفكير) نقلا عن قوقنارج (تصعد الأفكار العظيمة من القلب) ويقول جويير (إن القلوب التي يعوزها الدفء ، يعوزها النور). والمحبة سواء أكانت هي حاذبية الحق ، أم الحب الأصيل البسيط النقي تفتق الذهن وتضفي عليه حرية النبوغ وهكذا يفعل كل حافز يتسم بالإيثار وبمبدأ الروح بأكملها . إن عقد النقص العقلي تذوب ، كرقائق الجليد ، في رحاب الحب ، ومن ثم يتم تحرير الروح تماما . من كتاب (فن التفكير) ص ١٥٤ .

وكل هذه الدلائل تؤكد أن أفضل حالات العقل فى الوعى والإدراك ماكان منطقه ملتحما مع وجدانه، وما كان برهانه منسجما مع عرفانه، أى أن عملية التعقل والتمنطق هى حيوية فهم، ونشاط إرادة، لا مجرد معرفة قواعد، واتباع منطوق فالتلاميذ الصغار فقط هم من يفضلون تقديس القواعد!! إن فكرة الحوار العلمى المفتوح غير فكرة المطابقة بين المعرفة والقاعدة، ولقد حكى عن مجنون ليلى أنه (كان يمر بالحى راكبا ناقه له ، فرأى ليلى مع نسوة ودعونه إلى النزول والحديث معهن فنزل ، وكان محدثا لبقا ، وجعل يحادثهن ، وعينه لا تفارق ليلى ، وجاءته لتمسك معه باللحم ، وهو يقطعها ، فقطع كفه بالسكين ، وهو شاخص فيها فجذبت السكين من يده وهولا يدري ، وأوقد نارا للشواء ، وطرح قطع اللحم فيها وأقبل يحادثها فقالت له : انظر إلى اللحم هل استوى أم لا ؟ فمد يده إلى الجمر وجعل يقلب بها اللحم . فاحترقت وهو لا يشعر . ولما عرفت ما بداخله صرفته عن ذلك . ثم شدت يده بهدب رداؤها وذهب وقد استحکم عشقها فى قلبه) (٢٥) ولما أشفق أمه عليه بعد أن ترت الطعام والشراب وهام فى البوادي ، ذهبت إلى ليلى تستعطفها عليه فقالت لها ، إن قيسا قد ذهب حبك بعقله وترك المطعم والمشرب فلو جئته وقتا لرجوت أن يثوب إليه بعض عقله فقالت ليلى : أما نهائيا فلا ، لأنى لا آمن من قومي على نفسى . ولكن ليلا فأتته ليلا ، فقالت له : يا قيس إن أمك تزعم أنك جننت من أجلى وتركت المطعم والمشرب . فاتق الله وأبقي على نفسك فبكى وقال :

قالت جننت على رأسي فقلت لها الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

فبكت معه ، وتحدثنا حتى كاد الصبح يسعر ، ثم ودعته وانصرفت . فكان آخر عهده بها ... ولما بعد المهدي بابتته ليلى عن قيس ومنازل قومه جن بها جنونا فكان لا يعاوده عقله إلا قليلاً ، ولم تنزل تلك حاله غير مستوحش ، إنما يكون في جنبك عارياً منفرداً لا يلبس ثوباً إلا خرقة ، وهو يهذي وخطط في الأراضي ويلعب بالتراب والحجارة ، ويجمع الطعام حوله ، ولا يجيب أحداً سألته عن شئ ، فإذا أحبوا أن يتكلم أو يثوي إليه عقله ذكروا ليلى . فيقول بأبي هي وأمي ، ويرجع إليه عقله ويخاطبهم فيجيبونه ، ولما طال على قيس ذلك قال قوم لأبيته: لعل الجن قد أصابته فكان يأتيه بالتمائم والتعاويذ ويرش عليه الماء لاعتقاد العرب أن الجن تنفر من ذلك فكان يأى هذا الصنيع إباءً شديداً وينشد :

وجاءوا إليه بالتعاويذ والرقي وصبوا عليه الماء من ألم النكس
وقالوا به من أعين الجن نظرة ولوعقلوا قالوا به أعين الإنس (٣٦)

والمأمل في القصص السابقة يعجب أياً إعجاب لبراءة الخيال القصص فيها، وسذاجته البسيطة الآسرة التي تقرن بين الحب والجنون بصورة خيالية عفوية تجسد لنا كيف كان يتخلق الفلكلور الشعبي العربي حول الحب في الموروث السردي القديم . فليس الجنون هنا معناه انحلال قوى العقل والبدن ودخول الحب في محاق العقل وسيطرة التخثر والذهان عليه، بل كان الجنون يمثل تقنية فنية سردية تقوم بتجسيد عدم قدرة العقل الإنساني على تفسير سطوة الهيام . وأجيج الوجد بالحبوب ، وإلا فكيف نفسر في السرد القصصي السابق أن ليلى عندما كلمت قيساً وعاتبته في عدم طعامه وشرابه تاب إليه عقله وقال لها شعراً ، وعندما كان الحب (قيس) يهيم في الجبال والوديان والفيافي يصاحب المخلوقات البرية بعيداً عن

دنيا الناس ، قريبا من الخلاء والخلوة والكون والكائنات فإذا ذكروا له اسم ليلي
ثاب إلى عقله ، وآنس إلى رشده ، أليس في هذا فروسية روحية عارمة تذكرنا
بفروسية الصعاليك الذين استبدلوا الصحراء بالقبيلة ، والمرأة بالأصحاب
والوحش والتوحش المكاني الأبي ، بذل الرضا في أكناف أحكام القبلي الجائر! إن
الخروج عن حد العقل في الحب كان يعني الخروج عن المألوف من القواعد، والسائد
من التقاليد، والثابت من الأخلاق الصحراوية القاسية، وربما لا نكون مبالغين إذا
رأينا أن قران الحب بالجنون معادلة وجودية وثقافية تساوي في نظرنا قران
مفاهيم الصحراء بمفاهيم بالإسلام، أو قران ثقافة العشيرة والقبيلة بثقافة الدين
أو قران ثقافة فروسية المادة الضيقة الخشنة بفروسية الروح المتراكبة الرفافة ، فلقد
كانت الصحراء شسوعا صامتا يبعث على الرهبة والجلال، وتراميا أبديا إلى
المجاهيل والغوامض التي تملؤ القلوب والعقول شجي وحرنا أبديا غامضا، كما
كانت الصحراء غلظة وصلادة موحشة ترح النفوس رجا عذيفا فتأنس بسويداء
نفسها ، ودخيلاء أوهامها ووحدتها وانفراذها وكل هذا التكوين العقلي والنفسي
والخيالي والخلقي والقبلي قد مازحته روحية الإسلام ورقته وقواعده وأطره وتساميه
وتعالیه، فنازع الخلق القديم الجافي ، الخلق الجديد الصافي ، فصارت الروح العربية
مزيجا من الإقبال والإدبار ، والرقرة والغلظة ، والصحراء والماء ، فاستبدل الشعر
والشاعر كليهما فروسية الصحراء المادية ، بفروسية الماء ، وغلظة الرجولة المادية
المغلقة برقة الرجولة الفارسة الممتدة ، لقد انتقل مركز الوجود والروح والعقل
والثقافة من بنية الصحراء المادية الجرداء في الخارج ، إلى بنية الروح الممتدة
إلى أعماق البصيرة والحدس والاستشراق والتجاوز ومن هنا وقع الحب والمحبون

في أزمة روحية وعقلية ودينية هائلة من وجهة نظرنا الخاصة، إذا كيف يوفق المحب بين عرامة اللهب ، وصرامة الحدود؟! وكان يجب على المجتمع العربي والأدبي والثقافي بوجه عام أن يعي حدود الدين وقواعده وحلاله وحرامه وعيا ناضجا متراميا محبا حتى يتم الانتقال بسلام من وعي الخضوع الاستعبادي للنص الديني إلى وعي الخضوع الحر للنص الديني، فالله تعالى يريد عبدا أحراراً ولا يريد عبداً مستعبدين، كان يجب علي العرب ألا يفهموا حركة الدين وروحه وقواعده فهمهم للشئ الغفل المادى الغليظ، كان يجب أن يروا قواعد الدين أشبه بالحركة الحرة الطليقة الحريصة على الانطلاق المحسوب، والكرامة الإنسانية الحرة، من أن يروها أشبه بحدود أسمنتية مسلحة حريصة على الصد والحرمان وتأطير الدفق الإنساني المتموج داخل حدود الانطفاء ، وقيود الانزواء، فالدين العظيم نصارة دنيوية مبدعة قبل أن يكون رهبة أخزوية كهنوتية مغلقة، ولاغرابة في ذلك فالنص الديني نفسه يحتاج من كل عبد متوجه نحو ربه جهداً ثقافياً ووجدانياً وعقلانياً جهيداً لخروج الإنسان من ضيق أفقه الجزئي الصغير للدخول في أفق رباني كبير، ومجاهدة الإنسان لحدود وعيه السائد وماتعود على رؤيته باستمرار على أنه الحقيقة الوحيدة للدخول في ملكوت النص الديني وما يؤسسه من حقائق جديدة فيها يرتفع الإنسان إلى أفق وجوده الحر الخلاق، في كل زمان ومكان، ومن ثمة فالوعى الديني بل الوعى الإنساني الحق بصورة عامة متوقف على مجالدة الإنسان حدود وعيه دون نفيها، ومقاومة العقل حدود اعتياده دون إقصاء العقل نفسه، ومجالدة الإنسان حدود وعيه في الفهم السائد العام ليدخل شطر فهم ووعى جديدين يكون الإنسان فيهما أكثر وعيا وأصاله وصدقا، ولا نريد أن نقف هنا كثيراً حتى نفرض على زمن

حضاري مضى بطروفه المادية التاريخية الخاصة به . لنفرض عليه رؤيتنا المادية التاريخية المعاصرة، ونحن على وعى بالطبع من أن البشر لا يستوعبون العالم ولا الفكر إلا من خلال أبنيتهم المعرفية والتصورية والثقافية السائدة في زمانهم ومكانهم مهما كانت درجة علمهم وموضوعيتهم وحرصهم على الفهم والوعى والإدراك، فالإنسان منحاز بالطبع، منحاز لحدود وعيه، وسائدات فهمه، وراسخات ثقافته، وتقاليد زمانه ومكانه، رضى أم لم يرض. رغب أم لم يرغب ، ولكن حس التعاطف الديني والثقافي هو الذي حدا بنا إلى تقديم هذا التفسير، وهذه الرؤية الخاصة بنا في تفسير قران الحب بالجنون في موروثنا العاطفي العربي.

لقد كانت أزمة المحبين المسلمين المجانين، أزمة ثقافة وحضارية معقدة كل التعقيد، كانت أزمة الفروسية الصادقة العارمة وهي تدخل إطاراً جديداً من الوعي بالوجود الروحي الشفيف الذي صبغ به الدين الإسلامى شكل الحياة والحضارة العربية القديمة برمتها ، إذ كيف يخضع الفارس خضوعاً لا يمس من رجولته؟! ولا يغض من قيمته أمام نفسه وأمام الناس وأمام ثقافته الرمزية العامة؟!

يقول الدكتور شوقي ضيف في تأثير الإسلام على الحب عند العرب :
" ((الصحراء والإسلام هما اللذان أعدا لظهور هذا الغزل العفيف الحزين وما طوى فيه من حب نبيل شريف ، وهو غزل يعبر عن أسمى العواطف التي يفيض بها القلب الإنساني ، غزل نحس فيه لذع الحرمان وأن الرجل يتنهيب الاقتراب من المرأة ، فهي كائن ملائكي تحول قدسيته دون لمسه ، وحتى هي إن وصلته لا يزال يشعر شعوراً عميقاً بالألم واليأس ، بل قد يقضي به حبه إلى الجنون أو إلى الموت ، وهو لا يأتي ذلك وحده بل تأتيه المرأة أيضاً سعيدة قريرة العين ، ... وعلى هذا النحو لم يكن غزل

العذريين كغزل أسلافهم الجاهليين ، فهو غزل يعبر عن نفوس محرومة قد طهرها الإسلام من كل دنس ، وبرأها من كل غرض جسدي تافه ، غزل لا يراد به إلى تصوير المرأة ، وإنما يراد به إلى تصوير النفس العاشقة ، وما تبتئس به وتنعم في عشقتها وما تكابده في هذا العشق من ألوان العناء ، وما تجنيه من ثمرات مرة وحلوة إن صح أن تكون هناك ثمرات حلوة ومرة في آن واحد، والإسلام من غير شك هو الذي هياً لظهور هذا الغزل ، فقد صان المرأة وأسبغ عليها غير قليل من الكرامة والإجلال وبعث في نفوس هؤلاء البدو مثالية خلقية ، جعلتهم أو جعلت أفئدتهم تصغي إلى تعاليمه فإذا هي تخلصها من أدران الجاهلية ، وأدران الجسد وما يتصل بالجسد وإذا هذه النفوس قد صفيت وصفى معها الحب وتخلص من شوائبه المادية القديمة ولم تشع بين هؤلاء البدو من العذريين الحضارة ، ولا دخل في ديارهم الترف ، فلم تفسد نفوسهم ، ولا تحول غزلهم إلى فن من فنون الترف، بل بقيت له بداوته وسذاجته وبساطته ، وأخذوا يعبرون به عن دخائل نفوسهم إزاء المرأة وقد حاطها الإسلام بهالة من التجلة فإذا هم ترق أحاسيسهم، وتنبل عواطفهم ومشاعرهم، وإذا هذا الغزل العفيف الضامئ يصدر عن فطرتهم وسليقتهم صدورا طبيعيا كما يصدر الضوء عن الشمس ، والشذى عن الزهرة) (٢٧).

وعلى الرغم من تسليمنا للدكتور شوقي ضيف ببعض جوانب صحة هذا التفسير الديني والحضاري لعذرية الحب العربي ، غير أنه تفسير لا يستطيع أن يجيب عن أسئلة حضارية ومعرفية وجمالية متعددة في بنية الغزل العذري نفسه كما لا يستطيع أن يقدم لنا نورا كاشفا لتداخلات حضارية واجتماعية ومعرفية وجمالية معقدة بين روح الجاهلية وروح الإسلام في إيجاد هذه الظاهرة الشعرية

الغذرية التي قرنت بين الحب والموت والتجاوز والجنون من جهة ، وبين القلق الاجتماعي والأخلاقي العام وهدر دماء المحبين بين القبائل العربية القديمة من جهة أخرى؟! حتى لو أقر الدكتور شوقي ضيف وغيره من النقاد المحدثين بأن هذه الحكايات مدخولة على التاريخ العربي ، بعد أن نحلها خيال بعض القصاص يقول شوقي ضيف : ((ويظهر أن القصاص لم يدركوا سبب هذا الغزل المحروم ، وأن مثالية الإسلام الخلقية هي التي دفعت إليه ، فوضعوا من عند أنفسهم سببا ظنوا أنهم به يستطيعون أن يوجدوا العقدة النفسية التي أحدثت هذا الحرمان وهو سبب سيراه القارئ منشورا في كثير من هذه القصص) (٢٨).

إن الأسباب التي وصفها القصاص مثل الجنون ، أو الموت ، أو كراهة تزوج الفتاة العربية بمن شبب بها وأذاع حال حبها بين القبائل ، أو شيوع فكرة هدر دماء المحبين البائحين بهوهم أمام المجتمع إن جميع هذه الأسباب حتى وإن كانت صنعة خيالية سردية محضة حتى ينحيك السرد وتتحقق المتعة الفنية للقارئ غير أننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نغض الطرف عن الأسباب السياسية والاجتماعية والنفسية والثقافية التي كانت وراء هذا الاختلاق السردى العاصف الجميل ، أو أن نفصل بين الأيديولوجي والجمالي في بنية الشعر الغزلي القديم والمعاصر أيضا ، فيجب أن نولي سياق الحذف أهمية تضارع سياق الإثبات ويجب أن ننتبه إلى أن المصطلح النقدي والجمالي نفسه يمنح بقدر ما يمنح . ويمنح بقدر ما يمنح ، فدرا ما المجاز السردى لا تنفصل بأي صورة من الصور عن دراما الوجود الذي نحياه ، وإلا فكيف نعلل هذا الحب العاطفي الحسي الغارق في منابع البهجة والارتواء، الذي تجلى لدى أهل المدينة والحجاز ولدى عمر بن أبي ربيعة

وغيره لدى الأندلسيين المسلمين في القرن الرابع الهجري كما صوره ابن حزم في طوق الحمامة "؟! ألم تكن هناك فى الأندلس مثالية الإسلام أيضا؟! فهل مثالية الإسلام كما تصور شوقي ضيف وغيره هي التي دفعت إلى هذا الحرمان البائس في الحب العذري؟! وهل الإسلام الحنيف قد عانى من مثالية غير واقعية تؤلب البنية الجسدية والروحية والحضارية للفرد والمجتمع بعضها على بعض؟ بالطبع ليس هذا بصحيح على الإطلاق، فالإسلام لا يحرم الحب، ولا يأمر بحرمان المحب من حبيبته، ولا يقر أن يحيا الإنسان وفق مزاعم المجتمع لا وفق تلقائية الطبيعة الحية الجميلة!! بل أباح الإسلام الطلاق شرعا لأي زوج أو زوجة مسلمة لا يتوفر في علاقتها الزوجية شرطا القبول النفسي والروحي، والرضا الوجداني؟! إننا نملك عن التوافق المادي بكافة صورته الجسدية، وبصرف النظر عن الالتزام الخلقي والديني الذي أمر بهما الدين أيضا، ولكن الدكتور شوقي ضيف وغيره من النقاد يبررون شيئا لم يأت به الإسلام، وكان أولى به أن ينظر للقضية من منظور سياسي واحتماعي بشري، تحكمه قوانين وتقاليد حضارية محددة، في فترة تاريخية محددة.

يقول الدكتور نوري حمودي القيسي في دراسته عن " الحب والعشق والتوجه الاجتماعي في التراث العربي: ((إن المرحلة الإنسانية التي يجتازها الإنسان وهو يتخطى مراحل الانسلاخ من الإحساس المادي تعد خطوة من خطوات الابتعاد عن الغفلة ومرحلة من مراحل تجنب الانغماس في هوة التفكير الحسي في مباشرة العواطف، إلى جانب القدر التي تتلقاها هذه النفس من ترويض وجداني محسوس وهي تصارع نوازعها، وتغالب مغرياتها التي تحسنها الرغبات وتزيفها اللذات ونفوس هؤلاء الشعراء كانت تتحسس هذه الصراعات، وتعاني هذه المشاق، وهي

تتشوق وتقصّد وتُنظر وتتأمل وتفكر وتجاهد وتتصور وترسم لأحاسيسها ما تراه مناسباً ، وتعدّ لحياتها ما يجعلها خالدة مطمئنة ، وربما كانت هذه الانطلاقات هي الأساس الذي يفسر تعلق هذه النفوس بما كانت تحن إليه ، وتتشوق له حتى في حالة غيابها وذهابها وقد استطاع هذا الإنسان أن يعبر عنها بأشكال متنوعة وكان الشعر والبطولة والحرب والأسطورة والرمز صورة من صور الحب ولونا من ألوانه ، وعندما جاء الإسلام ، أدرك بإحساسه الديني الدقيق مدى العلاقة التي تشد الرجل بالمرأة ومدى ما يمكن أن تساهم به أمثال هذه العلائق بتطور المجتمع وازدهاره ، وتنظيم توجيهه وسلامته مسيرته فكان التأكيد في القرآن الكريم تأكيداً واضحاً استغرق آيات كثيرة عرضت لنظام الحياة ويؤكد الروابط المتينة ... وحفظ الحياة من مزلق التدهور وبعدها عن فوضى الانحطاط . بعد أن فرض الإسلام العقوبات ، وسن الحدود لكل خارج عن إطار الفضيلة ومتحد لمقومات الحياة الشريفة ، ولم يترك للرجل علاقة مع المرأة إلاّ علاقة الزواج ولم يفسح له مجال التحرك إلا في إطار الحلال الذي أمر الله به .

وقد أسهم هذا النظام في حماية المجتمع وصيانته من انتشار الرذيلة ، ورفعه إلى المستوى الذي يليق بالإنسانية ، وقد ظل الوازع الديني عاملاً من عوامل التسامي في تنظيم الحياة الاجتماعية ، وقوة فاعلة من قوى التوجيه في تنسيق العواطف وقد أدى هذا التنظيم إلى أن يضع كلا من الرجل والمرأة في الموضع المناسب وأن يتمتع كل منهما بمكانة مرموقة تتناسب مع المهمة التي يؤديها كلاهما في المجتمع إن الحديث عن ظاهرة الحب باعتبارها حقيقة اجتماعية ومعالجة الإسلام لها وإعطائها هذه الأهمية يعني أن الدين الجديد ، قد أدرك خطورة إهمالها

وما يمكن أن يؤديه هذا الإهمال من متاعب ، وما يخلفه من أوضاع لا تليق والقيم التي جاء بها وأمن بمفاهيمها ، وقد تركت هذه المعالجات العاطفية للفقهاء المسلمين مجال الاجتهاد في تنظيمها وخاصة الحب والعشق ، فأكثرنا من الحديث عنهما ، وتحليل دواعيهما ، ودراسة تطورهما مستعيزين بثقافاتهن واجتهاداتهن في سبيل تدعيم الحجج التي كانوا يعتمدونها في الدراسة ، وقد انتقلت أمثال هذه الدراسات من بيئات الشعراء التي وصلوا فيها إلى مراحل الذروة من العفة إلى بيئات المجتهدين والفقهاء الذين درسوها دراسة توجي بمحاولة ربط العاطفة بالمجتمع ، وشد أسبابها بأسباب تكوين تلك المجتمعات ووضع الحلول أو توجيه العواطف ... ولم يكن هذا الانتقال غريبا فنحن أشرنا إلى بداية معالجتها - في حدود - القرآن ، كما ساهمت السنة الشريفة بدراستها دراسة موضوعية فعالجت كثيرا من أحوالها ووضعت الحلول لها وفق المؤشرات الاجتماعية التي اقتضتها الحاجة وحددتها ظروف المجتمع آنذاك ، وكما حاول المجتهدين والفقهاء أن يضعوا الضوابط وينظروا النظريات للعشق والحب ، فقد حاول أصحاب البيان والأدب أن يدخلوا هذا الباب ، ويفردوا لكتبهم أبوابا يعرضون فيها لهذه الظاهرة الاجتماعية وجمعون بين الآراء التي تباينت في تحديد أحوالها ، وتصنيف أصحابها وتعليل ما وقعوا فيه ، ... ولعل الحديث النبوي الشريف الذي اختلف رواياته وتعددت طرقه وأسانيده ، يعد المفتاح الأول الذي دفع الفقهاء والمتأدبين وأصحاب الفرق إلى مناقشة الظاهرة أخيرا المبارك بن علي ... عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : " من عشق فعف فمات فهو شهيد " وبرواية أخرى .. " من عشق فمات فهو شهيد " وأخرى " من عشق وكرم وعف فمات فهو شهيد " وأخرى "

من عشق فعم فمات دخل الجنة " وأخيرة " من عشق وكرم وعف ثم مات مات شهيدا (٣٩).

ولعل فى ارتباط كتمان المحبوب حبه بالشهادة رجلا كان أو امرأة مايفيد شرف الحب ونبل غايته فى الثقافة العربية الإسلامية، التى لم تضع حدوداً قاسية بين الدنيوى والآخرى، بل جعلت نظارة الدنيوى أساسا لنضارة الآخرى دائما وفتحت آفاقا أخرى للسمو الإنسانى، والرفعة الوجودية، أوسع من حدودنا القصيرة فى الدنيا.

وفى نهاية هذا الكتاب أجزم أننى قد قضيت وقتا ممتعا أثناء عملى أستاذا بكلية الآداب والتربية بجامعة عمر المختار عام ١٩٩٧، فى التنقل بين زهرات الشعر اللببى النضير ولقد صحبت فى هذا العام الأستاذ الدكتور إبراهيم أبوتبر هذا القلب الكبير الذى علمنى معنى الحب، وكشف لى عن أسرار كثيرة فى لببى الحبيبة، فقد عرفنى على قلب هذا البلد الجميل قرية قرية، وقبيلة قبيلة، وله الفضل فى معرفتى بكثير من الشعراء اللببيين الكبار، بل ورجالات لببى الكبار الذين احتفظوا بكيانهم الإنسانى الأصيل فى الظل بعيداً عن دهاليز سياسات بلادهم التى لم يرضوا عنها لحظة واحدة، فقد كانوا وطنيين شرفاء بحق، فلهم منى على البعاد- بعد كل هذه السنوات التى مرت على قلوبنا وعقولنا وأرواحنا والتى لم ير أحدنا الآخر ثمانية منذ عام ١٩٩٧ - كل الود والإجلال، أقطف لهم من دماء قلنى وردة وفاء نفاحة بشذا الحب القديم الجديد أبداً، ففضلهم تطلع قلبى وعقلى إلى رصد خفقات شجيرة للوجدان الجمالى اللببى، وكيف تأمل قلبه وروحه وثقافته من خلال الوقوف أمام السحر الأزلّى للمرأة التى هى الحبيبة والأم والزوجة

والإبنة بل هي الحياة جميعا من ألفها حتى يائها، فكل ما هو أنثوى يشدنا إلى أعلى. فالنساء رياحين الدنيا وكلنا مشغول بشم الرياحين فهن مراوح القلب، وسلوة الروح، وعزاء وجودنا في هذه الدنيا القصيرة.